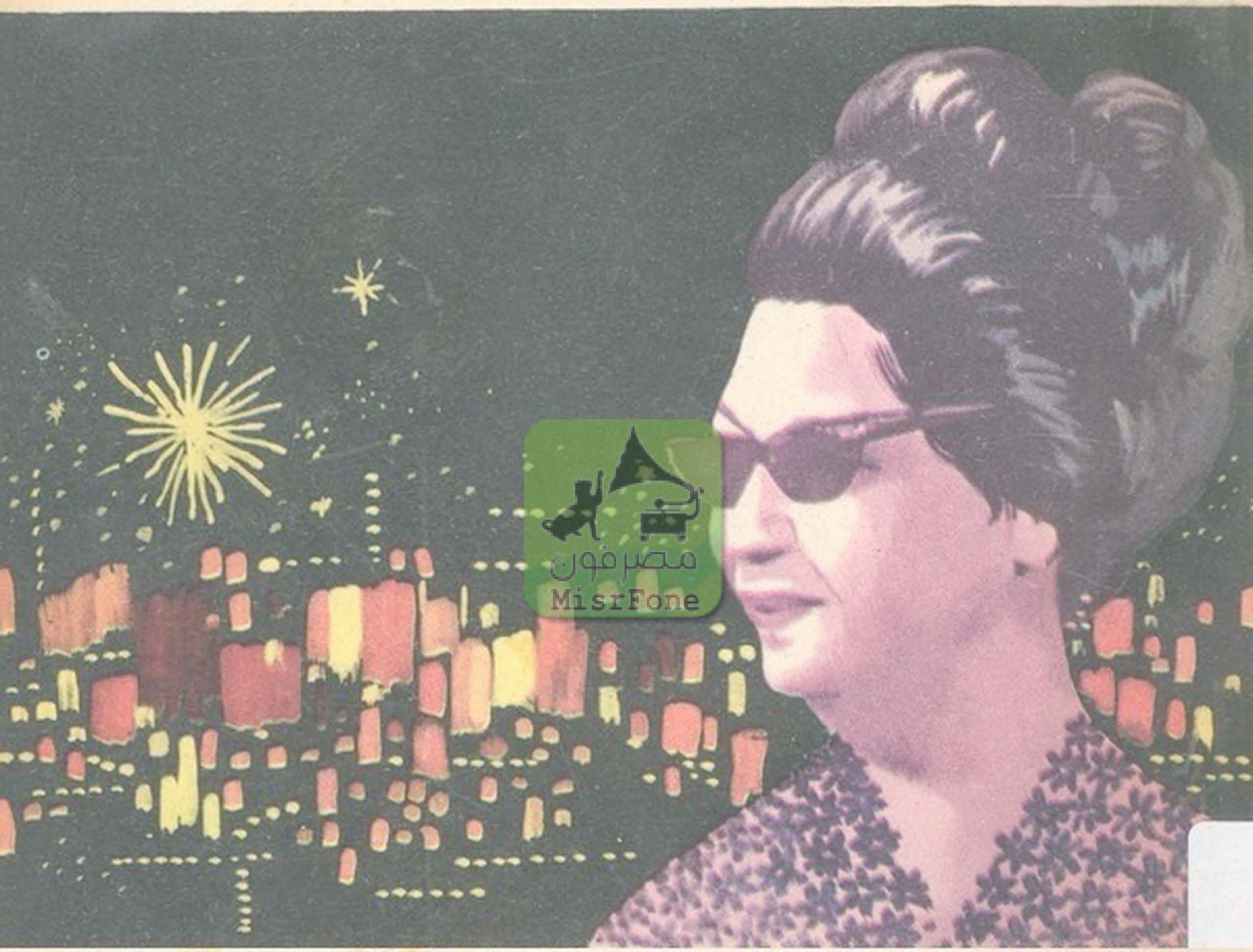
كتاب اليوم

يصدر عن مؤسسة اخبار اليوم

محمود عوض



أم كلثوم التي لا يعرفها أحد

كتاب اليوم
يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم

●

رئيس مجلس الإدارة
محمود أمين العالم

●

رئيس التحرير
حسين فهمي

●

مدير التحرير
مصطفى طيبة

●

سكرتير التحرير
جلال عارف

الغلاف بريشة الفنان
مصطفى حسين

محمود عوض



أم كلثوم التي لا يعرفها أحد



مقــــدمة ..

صديق لا أعرفه

•• كم الساعة الآن ؟! ••

سؤال يقفز الى ذهنى اوتوميكيا كلما فكرت فى ام كلثوم ،عندما استمع اليها تغنى ، تتكلم ، تناقش ، بل - حتى - وهى تستمع .. اكتشف ان الوقت قد خدعنى . عنـدما امد يدى الى شريط من اغانى ام كلثوم .. اى شريط .. فاننى اديره لكى استمع منه الى خمس دقائق ، عشر دقائق ، ربع سـاعة ، ولكننى اكتشف فجأة ان الوقت قد جرى منى دون ان ادرى . اكتشفت سؤالا تقفز الى ذهنى فجاة كم الساعة الآن ؟! .. الساعة السابعة ، الثامنة التاسعة ، العاشرة مساء . اربع ساعات قضيتها وانا استمع .. الى اغنية لم اسمعها منذ مدة طويلة - منذ اربع ساعات - تصور وبينما استمع الى ام كلثوم فربما - ربما - اتنبه الى الوقت من جديد قرب منتصف الليل . ايه ؟! كم الساعة ؟! منتصف الليل !! لا لا .. هذا كثير ! ..

ولكن لا يوجد كثير عندما تستمع الى ام كلثوم ، لم يعد هناك كثير من التصفيق .. كثير من الانفعال .. كثير من الوقت .. تحول الكثير الى شىء عادى . روتين . عادة . بل اننى اعـرف صـديقا يحدث له اكثر من هذا عندما يستمع الى ام كلثـوم ، اذا اعطيت لصديقى هذا كرسيا وطلبت منه ان يجلس عليه .. فانه سوف يجلس .. ساعة ، يوما ، اسبوعا ، لو لزم الامر . صديقى لن يطلب منك شـيئا اكثر من الطعام و .. اسـطوانات ام كلثوم ! ..

اننى لا اعرف صديقى هذا . اعرف فقط ان اسمه هو (م) . هذا اسمه - ميم - .. نقطة . لاننى لا استطيع كتابة اسماءمليون شخص ، مائة مليون شخص ، يفعلون ما يفعله صديقى هذاعندما يستمعون الى ام كلثوم ..

هؤلاء .. هم جمهور ام كلثوم ..

ومنذ وقت طويل مضى ، اعتادت ام كلثوم على هذا الحب من جمهورها ، انها تستمع منهم الى التصفيق . ثم ماذا بعد ذلك ؟ التقدير . ثم ماذا ؟ الشهرة ، الاعجاب ، الحب - نعم - ثم ماذا اخيرا ؟ التصفيق من جديد .. هذا كل شيء ..

ومعنى ذلك اننا لم نعرف اكثر من ١٥ ٪ من ام كلثوم ، لم نشاهدها سوى كل ليلة خميس تغنى فيها ، هذا كل ما نعرفه . اما حياة ام كلثوم - شخصية ام كلثوم - ابتداء من الجمعة الى الاربعاء ، من الصباح الى المساء ، من الفجر الى العشاء فلم نعرف عنها الكثير بعد . مازالت شخصية ام كلثوم تحتاج الى اكتشاف .. الى تحليل . الى اعادة نظر ..

اكتشاف آخر : ان ام كلثوم هي السبب فى هذا كله ! .. لقد أقامت ام كلثوم سورا صينيا حول شخصيتها ، سورا عاليا .. سورا يحجب ماقى داخله ، خلف هذا السور تحتفظ ام كلثوم بحياتها الخاصة ، بشخصيتها الخاصة ، بأفكارها الخاصة ان أم كلثوم قد اتخذت قرارا اختياريا سابقا : ان تعيش حياتها بين قوسين ..

وشيئا فشيئا بدات احاول اقناع ام كلثوم أن تفتح القوسين ، ان تفتح باب السور حتى يعرف الناس كل حياتها ، كل شخصيتها كل تفكيرها ، شهر وشهر .. وسنة .. ثم بدات ام كلثوم تتكلم ، بدات تتكلم - بعد سنة - لكي تروى لي اشياء كثيرة جدا .. اشياء أستطيع تلخيصها تحت عنوان واحد : لا شيء ! .. ولا حرف ، ولا كلمة ، ولا - حتى - وعد بكلمة ..

ولكننى حاولت من جديد .. مرة .. ومرة .. ومره . ثم - اخيرا - بدات ام كلثوم تتكلم . تتكلم فعلا ..

فى هذه المرة كان حديثى مع ام كلثوم يبدا على اساس انه مستغرق نصف ساعة - بالكثير ساعة - ولكن .. ها هو السؤال من جديد يقفز الى ذهنى تلقائيا : كم الساعة الآن ؟ لحظتها اكتشفت ان الساعة قد توقفت منذ ساعة ، ساعتين ، ثلاث ، اربع - احيانا خمس - ساعات ! ..

وفى كل مرة كنت اعود الى الاوراق التى كتبتها من حياة أم كلثوم . اعادة نظر . ماذا فى يدى ؟ اوراق - نعم - ولكن .. ماذا كل هذه الصفحات .. ؟ كل هذه الاسرار عن شخصية أم كلثوم ؟ ..

ان ام كلثوم بدات حياتها من لا شيء . اقل من لاشيء .. من الصفر .. من تحت الصفر .. ولكنها استطاعت ان تصل الى قمة لم يصل اليها احد ، ثم استمرت فى وقت لا يستمر فيه احد .. وفيما بين النقطتين - القاع والقمة - واجهت ام كلثوم مواقف كثيرة الفقر الجوع ، الحرمان ، الشقاء ، الياس ، الهزيمة ، السقوط ، الفشل : الالم ، العذاب - كثيرا من العذاب ، ثم - بعد وقت طويل - النجاح ، مواقف لا يعرفها أحد ..

فيما بين القاع والقمة كان فن ام كلثوم هو - فى الواقع - الطريقة التى عاشت بها ، حياتها نفسها .. هى الفن .. فن ام كلثوم هو حياتها ، وحياتها هى شخصيتها ، وشخصيتها هى - من جديد - المفتاح الرئيسى - لفهم أم كلثوم . ان أم كلثوم هنا هى نموذج ، هى رمز ، رمز لشخصية ، لحياة ، لمجتمع ، لظروف هذا المجتمع .

و .. ..

الصفحات القادمة هى حصيلة هذا كله .. حصيلة افكار

ام كلثوم .. وافكار المجتمع عن ام كلثوم . نصفها مذكرات منها ، ونصفها مذكرات عنها . حل وسط ..

في هذه النقطه اريد ان انبـه الى شيء هام انني اعشق صوت ام كلثوم ، ولكنني لا اعبده . في الواقـع انني انتمي الى جيل جديد لا « يعبد » احدا . جيل يحب ، يعجب ، يعشق .. ولكنه لا يفعل – حتى هنا – الا بعـد أن يفهم .. ويناقش جيـل يرفض استثناء أحد من المناقشـة .. والمراجعة .

وأم كلثوم نفسها متفقـة معي في هذه النقطـة . بل انه في مكانين على الاقل من هذا الـكتاب حدث خـلاف في الرأي بين ام كلثوم وبيني . مازال الخـلاف قائما .

ولـكنني اومن بانني اذا كنت معجبا حقـا باحد .. فيجب ان اعبر عن هـذا الاعجاب وانا واقف على قدمي ..

ان ام كلثوم نجحت في اشياء كثيرة . سوف تسجل الصفحات القادمة جزءا منها . .

وفشلت ام كلثـوم في اشياء قليلة ، سـوف تسجل الصـفحات القادمة معظمها ..

ولكن .. يبقى في النهاية شيء واحد لقد فشلت ام كلثوم في شيء أكبر من هذا كله : فشلت في أن تكون امراة عادية !

بهذا السطر أعلن انسحابي مؤقتا .. حتى اجلس في مقـاعد القاريء لصفحات .. من مذكرات أم كلثوم . مذكرات منها وعنها مذكرات الى صـديقي المجهـول « م » .. ميم . . نقطة . مليون مستمع – مائة مليون مستمع – يعشقون ام كلثوم !

محمود عوض



تعلمت من امى التواضع

وتعلمت من ا لصدق

وتعلمت من ا لايمان بالله

ام كلثوم

صفحه من مذكرات ام كلثوم بخط يدها



«.. كانت اول حفلة غنيت فيها مزدحمة جدا بالناس . لقـــد حضرها خمسة عشر شخصا»!!

ام كلثوم

من مذكرات أم كلثوم

سنوات السير على الأقدام!

كانت فاطمة تقيم فى بيت ريفى صغير من الطوب النيء . البيت له عدة ابواب تطل على حوش ، وراء كل باب حجرة صغيرة طولها ثلاثة امتار وعرضها متران تقيم فيها اسرة مكونة من زوج وزوجة .عدة اطفال ..

وفى احدى هذه الحجرات رقدت فاطمة المليجى تتلوى من الالم فى انتظار المولود ..

ومع الفجر ، اطلت المولودة براسها ، وحملت الداية القروية المولودة وخرجت بها الى المندرة وهى تصرخ : مبروك فاطمة ولدت! ولم تقل الداية ان فاطمة انجبت طفلة .. فقد خشيت ان يصطدم الاب بالخبر ! ..

وكان الاب يجلس على الارض يقرأ كتابا عن اولاد النبى .. وكانت عيناه فى تلك اللحظة على اسم احدى بنات النبى ؛ وقبل ان يسمع انه رزق بمولود او مولودة صاح : نسميها باسم بنت النبى ، نسميها ام كلثوم !

ولم يكن اسم « ام كلثوم » معروفا ولا متداولا فى قرية (طماى) ولا القرى المجاورة ، ولهذا بدا اسما غريبا على اسماعهم

ولم تعارض فاطمة فى اختيار هذا الاسم ، ولكن الاهل والاقارب اعترضوا على الاسم الغريب ، وراحوا يحاولون اقناع الشيخ ابراهيم باختيار اسم خفيف مثل خضره وبدوية وست الدار !.

ورفض الشيخ هذه الاسماء ، لقد اصر على ان يسمى المولودة باسم بنت النبى " ام كلثوم !..

ويظهر ان امى كانت تشارك اهل القرية سرا فى اعتراضهم على اسم « ام كلثوم » .. لانى وعيت عليها وهى تناديني باسم « سومة » ، وكان والدى ايامها امام مسجد فى قرية « طماى الزهايرة » من اعمال مركز السنبلاوين بمحافظة الدقهلية ، وكان

مرتبه من الامامة لا يكفى للصرف على اسرته ، ولهـــذا كان يقرأ القرآن فى الموالد ، ان مجموع دخله من عمله الاصلى وعمله الاضافى لم يكن يتجاوز عشرين قرشا ..

وكان هذا المبلغ هو الذى يعطى كل شهر نفقات اسره مكونه من امى وابى واخى خالد .. وانا ! ..

ولا اعرف كيف كنا نعيش بهذا المبلغ البسيط .. فان صورة معيشتنا المتواضعة لا تعيش فى ذاكرتى . ان اول صورة اذكرها اليوم هى صوره « ستى نصرة » أم ابى . كانت نحيفة سمراء ، مسمسمة التقاطيع ، اننى مازلت اذكرها وقد ارتدت جلبابا سود وطرحة سوداء وجلست على الارض تفصل لى عروسة من القماش وانا جالسة مسحورة ! اذكر انها لما انتهت من تفصيل العروسة وملأتها بالقطن ، رسمت عليها العينين والحاجبين والشفتين ، ثم قطعت خصلة من شعرها ، ولصقتها على رأس العروسة ، وانا ارقب عملية الحلق فى دهشة واعجاب ! ..

ولاحظت ان أخى كان يحمل كتبا وكراسات كل صباح ويذهب الى الكتاب المواجه لبيتنا فذهبت ابكى لامى واطالبها بادخالى الكتاب ! ..

وقالت امى انت صغيره السن ! ..

ولكنى رحت اذرف الدموع والح على ابى ان يدخلنى الكتاب !

وتعب ابى من الحاحى فأدخلنى « كتاب » سـيدنا الشيخ عبد العزيز ! ..

وكنت اذهب كل صباح الى الكتاب واجلس فى الفصل دون ان اتعلم شيئا ! ..

وكنت سعيدة بدخولى الكتاب فقد اصبحت لى كل مظاهر اخى الكبير ، ولم انتبه الى انه كان يتعلم .. بينما كنت انا اتفرج ! وبعد بضعة اشهر سمعت ابى يهمس لامى عقب صلاة الفجر مرة ! انا ما اقدرش ادفع مصاريف أم كلثوم .. ما عنديش غير قرش واحد ادفعه للولد ..

وراحت امى تلح على ابى وترجوه ان يبحث عن اى طريقة يدبر بها قرشا آخر حتى لا ينكسر قلبى ، لقد كانت مصاريف الكتاب قرشا واحدا ، ادفعه كل اسبوع لسيدنا فقى الكتاب !

واستطاع ابى ان يدبر هذا القرش ، ولم اخرج من الكتاب .

وتحولت مع الايام من متفرجة الى تلميذة بعد ان رايت زملائى فى الفصل يكتبون ويقراون . وبدات اتتبع دروس الشيخ عبد العزيز ، بعد ان كنت اتتبع حركاته ونظراته !..

وفجاة .. طارت سعادتى ! وكرهت التعليم والشيخ عبد العزيز

فقد حدث ان اساءت لى زميلتى وجارتى على « التخته » التلميذة عزيزه فقررت ان انتقم منها .

وذهبت قبل موعد بدء دخول التلاميذ الى الكتاب ، وفتحت درج عزيزة وكسرت لوح الاردواز الذى تكتب عليه .

وفجاه دخل مفتش وزارة المعارف ! فقفزت من مقعدى وضربت له السلام !

وسال المفتش عن الشيخ عبد العزيز ، فقلت له انه لم يحضر بعد

وحضر الشيخ عبد العزيز بعد فتره من انتظار المفتش الذى كان يتميز غيظا من تاخر الشيخ ! ..

ولما جاء الشيخ قال له المفتش ما شاء الله البنت الصغيرة تحضر فى الميعاد .. وحضرتك تتاخر نصف ساعة !

وضاق الشيخ عبد العزيز بهذا اللوم ، وحملنى مسئوليته ، وراح يضطهدنى ؛ فى كل مناسبة كان يسال السؤال ثم يتجه نحوى دائما ويقول ساخرا قومى جاوبى يا بنت يافالحة!..

وكان زملائى وزميلاتى يغرقون فى الضحك كلما سمعوا كلمة « فالحة » ! ..

وضاقت الدنيا فى وجهى ! واصبحت اكره الذهاب الى الكتاب حتى لا اقع فى قبضة الشيخ عبد العزيز - اسئلته ! .

وفى يوم من الايام فتحت لى السماء ابوابها ..

لقد مات الشيخ عبد العزيز فقيه الكتاب !

ولم اصدق النبا .. تصورت انني احلم ! ذهبت الى الكتاب فقالوا لى ان سيدنا قد مات فلم اصدق ، ذهبت الى بيته ، رايت دموع زوجته وامه وابنته فلم اصدق ! .. ولما سارت جنازته وراء نعشه حتى المدافن ، انتظرت حتى اخرجوه من النعش وادخلوه المقبرة وواروه التراب ! ..

لقد كنت اتصور أن الشيخ عبد العزيز من الشخصيات التى



الفتاة القروية ام كلثوم ابراهيم فى سنواتها الغنائية المبكرة صورة التقطت
نها سنه ١٩٢٤ ولا توجد نسخة منها عند ام كلثوم .

لا يمكن ان نموت ! كنت اتصور انه سيطل براسه فجأة من القبر ويقول لى

قومى جاوبى يابنت « يا فالحه » :..

ولكن سيدنا الشيخ لم يطل براسه من تحت التراب !

وتوهمت انهم دفنوا التعليم فى القبر مع الشيخ عبد العزيز ! تصورت ان عصر الذهاب الى الكتاب قد انتهى ولن يعود،تصورت انه محرم فكرة التعليم ..

ولكن سعادتى طارت منى مرة اخرى

لقد فوجئت بأن سيدنا الشيخ عبد العزيز لم يكن الفقيه الوحيد فى الدنيا ! فوجئت بان التعليم لم يدفن معه فى القبر كما تصورت !

فوجئت بأنه لا يزال هناك « اسياد » على قيد الحياة يعلمون فى الكتاتيب ! ..

لقد اغلق كتاب سيدنا الشيخ عبد العزيز ابوابه ، وبقيت كتاتيب اخرى مفتوحة الابواب ! ..

وصدر والدى امره الذى لا يقبل مناقشه بان انتقل مع اخى خالد الى كتاب آخر يبعد عن بلدتنا حوالى ثلاثة كيلومترات.. انه كتاب عزبة « الحوال » بالسنبلاوين ! ..

وكنا نمشى كل صباح ثلاثة كيلو مترات الى الكتاب ، ثم نمشى ثلاثة كيلو مترات اخرى الى قريتنا ! اى اننى كنت اقطع كل يوم سته كيلو مترات مشيا على الاقدام ! ولكنى فى الواقع كنت اقطع عادة سبعة او ثمانية كيلو مترات بسبب حبى للمغالطة

فقد انضم لنا صابر ابن زوج اختى ، وعمرو وهو من قرية مجاوره ، وكنا نحن الاربعة نلعب لعبة كرسى السلطان اثناء عودتنا من الكتاب . كان كل ثلاثة منا يحملون الرابع من عمود تليفون .. الى عمود تليفون !

وكنا نختلف عشرات المرات ! كان كل منا يدعى ان هذا دوره فى الجلوس على كرسى السلطان !.. وكنت اكثرهم مغالطة .. واصرارا على أنى صاحبة الدور ! ولذلك كنا نرجع عشرات المرات الى اعمدة التليفون التى مررنا بها ، لنبدأ الرحلة من جديد ، ويرضى الطفل الذى ادعى دوره فى الجلوس على كرسى السلطان !

وبدأت احب الكتاب من جديد ، لاننى كنت أحب لعبة كرسى السلطان ! ..

وبدات مقاومتى للتعليم تنكسر ، خصـــوصا ان فقيه الكتاب الشيخ ابراهيم واولاده لم يضطهدنى كما كان يفعل سيدنا الشيخ عبد العزيز ! لم يقل لى « الاسياد » الجدد قومى يا بنت يا فالحة لم يسخر منى سيدنا الشيخ ! لم يركز اسئلته فى الفصل على ام كلثوم ، الا اذا رفعت اصبعها وابدت استعدادها للاجابة ! .

وبدات احب اســـاتذتى .. وحبى لهم جعلنى احب التعليم ! واحب الذهاب الى الكتاب ! ..

وكانت حياة طفولتى سعيدة مليئة بالضحكات ــ مع الفقر ــ الى ان صحوت فى فجر احد الايام على صوت همسات بين امى وابى ! ..

سمعت امى تسال ابى عن سر قلقه طوال الليل ؛ وسمعت ابى يقول لها العيـــد جاى ! .. ومش قادر اجيب للاولاد جلاليب جديدة فى العيد ! ..

واحسست بآلام امى وابى ! ..

وعندما طلع النهار ذهبت الى امى وقلت لهـا : انا مش عاوزة جلابية على العيد .. جلابيتى القديمة حلوه قوى ونفسى البسها فى العيد ! ..

وبكت امى .. وراحت تمطرنى بقبلاتها .. وشعرت وانا محاطة بذراعيها ، اننى ارتدى اجمل فستان فى الدنيا ! ..

⊙❖⊙

ومن الصور التى تعيش فى ذاكرتى صورة ابى وهو جالس على الارض يعلم اخى قصة مولد النبى والقصائد والتواشيح ليساعده فى عمله الاضافى الذى يقوم به .

واذكر اننى لم اكن اهتم بالجهود التى يبـذلها ابى لتعليم اخى وتحفيظه هذه القصائد ، كنت فى شغل عنها باللعب مع اجمل فتاة فى الدنيا : عروسة جدتى ! ..

ولكن يظهر ان التكرار بدا يتحكم فى ذاكرتى ، لاننى بدات وعمرى خمس سنوات اقلد ابى من وراء ظهره .. اقلده وهو يعلم اخى خالد ! ..

وفى احد الايام ضبطنى ابى ! ووقف وراء الباب يراقبنى وانا اقلده ! فلما انتهيت من تقليده قال لى : تعالى معايا الى حفــلة شيخ البلد ! ..

قلت له : لا .. موش عاوزة اروح ! ..

فراح ابى يغرينى بالكراملة التى أحبها ، فعاندت ورفضت !.

ولكن لما بدا يلوح لى بصحن المهلبية الذى اعشقه ذاب عنادى ووافقته على ان اذهب معه الى الحفلة !..

وكانت الحفلة مزدحمة بالناس .. فقدبلغ عدد الذين حضروها حوالى خمسة عشر شخصا .. وكان هذا العدد بالنسبة لى هو الزحام الضخم !

وطلب منى ابى ان اجلس بجانبه على الكنبة الخشبية واغنى كما هى عادة المغنية فى ذلك الوقت ! ولكنى رفضت الجلوس ، واصررت على الوقوف فوق الكنبة وبدات اغنى !

ولم يساورنى الخوف ! لم اضطرب أمام الجماهير ! لقد وقفت وغنيت بلا اهتمام وكانى اغنى لعروستى الصغيرة ! ..

اننى اخاف اليوم من الجمهور الذى يعرفنى واعرفه .. واحسب له الف حساب وانا أواجهه .. لكن لما كان عمرى خمس سنوات كنت اكثر ثقة بنفسى من اليوم ! ويظهر ان التجربة هى التى تعلمنا الخوف !..

وبعد خمس دقائق انتهيت من غنائى . وسمعت لاول مرة فى حياتى تصفيق الناس ! ولكن هذا التصفيق لم يهزنى ! فقد التفت الى ابى وقلت له فى لهفة : فين بقى اللى قلت لى عليه ؟ فين «طبق المهلبية » ؟ !

⊙❖⊙

وكان بين الذين حضروا هذه الحفلة بعض اهالى مركز السنبلاوين الذين طلبوا من ابى احضارى معه الى حفلتهم المقبلة.

وذهبنا الى السنبلاوين مشيا على الاقدام .. مشينا ثلاثة كيلو مترات . وتناوب افراد التخت حملى على اكتافهم كلماشكوت من التعب !

وقادنا صاحب الحفلة الى منزله الصغير .

لم ادخل المنزل وحدى ! ..

كنت احتضن قطتى الصغيرة التى كانت تؤنسنى ، وتبدد وحدتى كانت هذه القطة صديقتى ! كنت احدثها عن متاعبى الصغيرة واحلامى الكبيرة .. وكانت تنصت الى باهتمام !..



الشيخ ابراهيم ٠٠ والد ام كلثوم

وفجأة تركتنى القطة ودخلت تحت كنبه من الخشب ! فزحفت وراءها وجلست معها تحت الكنبة ! ويظهـــر انى جلست تحت الكنبة مدة طويلة .. فقد راح والدى يبحث عنى دون جدوى !

ولما خرجت القطة من تحت الكنبة ، خرجت وراءها ! وتلقفني والدي وأجلسنى بجانبه وطلب منى ان اغنى ! ورفضت للمـــرة الثانية ان اغنى جالسة .. أصررت على الوقوف ! ..

وكان جمهور هذه الليلة اكبر من جمهور الليلة السابقة .. كان عددهم عشرين شخصا ! ولكنى لم اشعر بهـذا الجمهور الكبير ولم اهتم به ! كنت اغنى وانا احلم .. كنت احلم بطبق المهلبية الذى ينتظرنى ! ..

وتوالت الحفلات ..

ولم اسمع من ابى وامى فى يوم من الايام شكوى بصوت مسموع من الفقر والحرمان الذى نعيش فيه ؛ كانا يحاولان دائما اخفـــاء الضيق عنا .. وكانا لا يكشفان عن هذا الضيق الا بهمسات بعد صلاة الفجر ، عندما يتصوران اننى واخى نائمان لا نسمع شيئًا !

ولكن هذه الهمسات الحزينة عاشت معى ! كانت تدوى فى اذنى كنت اتصور ان ازمة امى وابى فوق قدرتى ! كنت اتصور أن كل ما استطيع ان اقدمه لامى ، هو ان اتطلع الى الســـماء واقول : يارب ساعد امى ! ..

ولم يخطر ببالى اننى سأستطيع فى يوم من الايام ان اكسب قرشا اساهم به فى تخفيف ازمات امى ! ..

ولكن فى ذات ليلة وجدت فى يدى كنزا ! ..

◎❖◎

لقد اعطانى صاحب الحفلة الذى غنيت عنده قطعة فضية من ذات العشرة القروش ! واطبقت اصـــابعى الصغيرة على القروش العشرة فى حرص ، وكأننى أمسك الدنيا كلها بيدى ! ..

عشرة قروش !..

لقد بدت لى فى تلك اللحظة انها اكثر من مال قارون ! وتصورت ان العشرة القروش التى اقبض عليهـــا باصـــابعى ، ستحل كل ازماتنا المالية ! ..

لقد شاءت الظروف بعد ذلك ان امسك باصابعى الوف الجنيهات .. ولكن هذه الالوف لم تهزنى ولم تبهرنى ، كما هزتنى وبهرتنى العشرة القروش ..

وحملني احد المشايخ على كتفه ليعود بي الى القرية ! واستغرقت في نوم لذيذ مريح وانا قابضة بكل قوتي على الثروة الضخمة ! ولما وصلت الى امي ، فتحت اصابعي واعطيتها مال قارون ! واحسست بذراعيها وهي تضمني في حنان .. واستغرقت في نوم عميق لذيذ ..

لم يعد ابي يقصر جهوده على تدريب اخي خالد على الغناء .. بدا يدربني انا ايضا !

وذاع صيت الطفلة الصغيرة في القرى المجاورة ؛ وخرج هذا الصيت وراء الحدود .. حدود القرى المجاورة ! وطالت المسافات التي كان يجب ان نقطعها مشيا على الاقدام .. وارتفع دخلنا حتى اصبح في قدرتنا ان نركب قطار السكة الحديد .. ولكن في الدرجة الثالثة !

ومازلت اذكر السعادة التي شعرت بها وانا اركب القطار لاول مرة في حياتي . كان القطار المسافر من محطة السنبلاوين الى محطة ابو الشقوق . ودخلت عربة القطار ، ووقفت على المقعد اطل من النافذة ، ووالدي يمسك بذيل ثوبي ! ثم فوجئت بمنظر غريب اثناء سير القطار ! لقد بدات اشجار النخيل واعمدة التلغراف تجري امامي ! لقد هزني هذا المشهد العجيب الى درجة انه لما وقف القطار في محطة « ابو الشقوق » ، امسكت بالنافذة ورفضت النزول !

ووعدني والدي اني ساعود الى ركوب القطار غدا .. ولكني رفضت ان اصدقه ! وهنا اقسم لي بالله .. فصدقته ، ونزلت من القطار !

وذهبنا الى الحفلة .. وكانت مقصورة على القادرين ، فان ثمن التذكرة كان قرشا !

وافتتحت الحفلة بخناقات بين الجمهور استغرقت ساعة كاملة وبدات اغني التواشيح فعاد الخناق ، واستمر ساعة اخرى

ودامت الحفلة اربع ساعات منها ثلاث ساعات ونصف ساعة خناقات ومعارك بين المتفرجين واستغرق الغناء نصف ساعة فقط!

وكانت الخناقات والمعارك من لوازم الافراح في الريف .. ولهذا كان محصولنا الغنائي لايتجاوز عادة اكثر من نصف ساعة ..

وفي بلدة « ميت رومي » في البحر الصغير بشمال الدلتا وقعت لنا مفاجاة لم نحسب حسابها !

بدانا الغناء ، فلم يتحانق أحد ! تركنا الجمهور نغنى بلا مقاطعة ولا معارك ! وغنينا كل ما عندنا في نصف ساعة .. والمفروض ان تستمر الحفلة الى الفجر ! وتصور ابى ان ساعته قد توقفت .. ثم رأى العقرب يتحرك ! وحار ابى وافراد التخت كيف يواجهون هذه المفاجأة وقرر ابى أن نعيد على المستمعين نفس التواشيح التى سمعوها منذ نصف ساعة ! ولم يحتج الجمهور على الاعادة والتكرار

ورحنا نعيد نفس التواشيح للمرة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة !

وبعدها بدا والدى يستعد للمفاجآت .. بدا يستعد للحفلات التى لاتعارك فيها الجمهور ولا يتضارب وبدأ يمرننا على حفظ اغانى جديدة زيادة على الاغانى التى كنا نكررها فى كل حفلة ولا تستغرق فى مجموعها اكثر من نصف ساعة !

وفى ذات يوم ذهبنا الى الغناء فى قرية مجاورة للقرشية بالقرب من مدينة طنطا .

وقبل بدء الحفلة قادنا صاحبها الى السرادق الذى سنغنى فيه .. واشار الى فانوس ، وقال لنا : لما ينكسر الفانوس ده .. ادخلوا الحجرة دى !

ولما ظهرت على وجه ابى علامات الدهشة قال الرجل بقى أنا لاباجوز انى ولا نتى ! جايبنكم علشان اهل البلد المجاورة يحضروا نقوم نضربهم !

ولما بدات اغنى ، كنت اغنى للفانوس ! كنت اقول للفانوس : سبحان من ارسله رحمة لكل من يسمع ، او يبصر ! وكنت اركز عينى وعقلى وكل حواسى فى هذا الفانوس .. حتى اهرب عندما ينكسر !

وفعلا انكسر الفانوس !

وبدا الضرب بالعصى والنبابيت !

وبعد انتهاء الخناقة خرجنا من المخبأ .. وفوجئنا بأن اهل القرية المجاورة هم الذين ضربوا الذين اعدوا الكمين لضربهم !

⊙❖⊙

ولم تكن متاعبنا مقصورة على المعارك والخناقات .. كانت بعض متاعبنا بسبب بساطة بعض اهل الريف .

وحدث أن اتفق معنا اهالى قرية مجاورة لمركز نبروه على احياء فرح فيها .. ومشـــينا عدة كيلو مترات من قريتـــنا الى مركز السنبلاوين ، ثم ركبنا القطار الى المنصورة ، ثم ركبنا قاربا صغيرا عبر بنا النيل الى طلخا ، ثم ركبنا قطار الدلتا الى نبروه .

ولم نجد اصحاب الفرح فى انتظارنا كما هى العادة .

وبرر والدى هذا التصرف بانه لابد ان اهل الفـرح انشغلوا فى اعداد الفرح .

واستأجرنا مطايا « حميرا » ، وذهبنا بها الى القرية التى سيقام فيها الفرح ، وسألنا عن بيت صاحب الفرح فقادونا اليه .

ودار الحديث التالى بين والدى وصاحب الفرح :

والدى أنتم نسيتونا والا ايه ؟..

وسكت صاحب الفرح

والدى : يعنى لم نرسلوا « ركوبة » الى المحطة !

و ... صاحب الفرح وظهرت على وجهه علامات الدهشة .

والدى موش النهارده الخميس .. ميعاد الفرح ؟

واجاب صاحب الفرح ببساطة

ــ ما احنا اجلناه !

والدى اجلتم ايه ؟

ــ اجلنا الفرح !

والدى طيب ما ارسلتش لنا خبر ليه ؟

وعادت الدهشة الى وجه صاحب الفرح وقال كل البلد عارفه ان الفرح تأجل ! ولد يا خليل ؟ ولد يا حسين ؟ ولد يا سـيد ؟ موش احنا اجلنا الفرح ؟

وهز القرويون خليل وحسين وسيد رؤوسهم بالموافقة .

وقال صاحب الفرح ببساطة شايفين ؛ كل الدنيا عارفه اننا اجلنا الفرح !

ورجعنا كما حضرنا ! عدنا الى محطة نبروه ثم ركبنا قطار الدلتا الى طلخا ، ثم عبرنا النيل بالقارب الى المنصورة ، ثم ركبنا القطار الى السنبلاوين ، ثم مشينا على الاقدام الى قريتنا الصغيرة !

وكان والدى يتتبع باهتمام تصرفات كبار المطربين والمطربات حتى اقلدهم واوهم الناس اننى مطربة كبيرة !

واكتشف ابى ذات يوم اكتشافا هاما ! اكتشف ان الشروط الغنائية لتنص على ان المطرب « الصييت » الشيخ حسن جابر يشرب الكازوزة فى الحفلات ! فاضاف الى عقودنا بندا جديدا بتعهد صاحب الحفلة بتنفيذه ..

وكان هذا البند هو ان يتعهد الطرف الاول بان يقدم للطرف الثانى « أم كلثوم » زجاجة كازوزة !

ومافيش حد احسن من حد !

وكنت سعيدة بحياتى ! سعيدة بالحمار الذى اركبه ، وطبق المهلبية الذى التهمه .. وزجاجة الكازوزة التى اشربها !

وبدات شهرتنا تملأ الآفاق ! وكانت الآفاق هى القرى المجاورة لمركز السنبلاوين ! ووصل اجرى مع الفرقة التى تتالف من خمسة من المشايخ الى مائة قرش عن كل حفلة نقيمها !

وبدات شهرتنا تزحف !

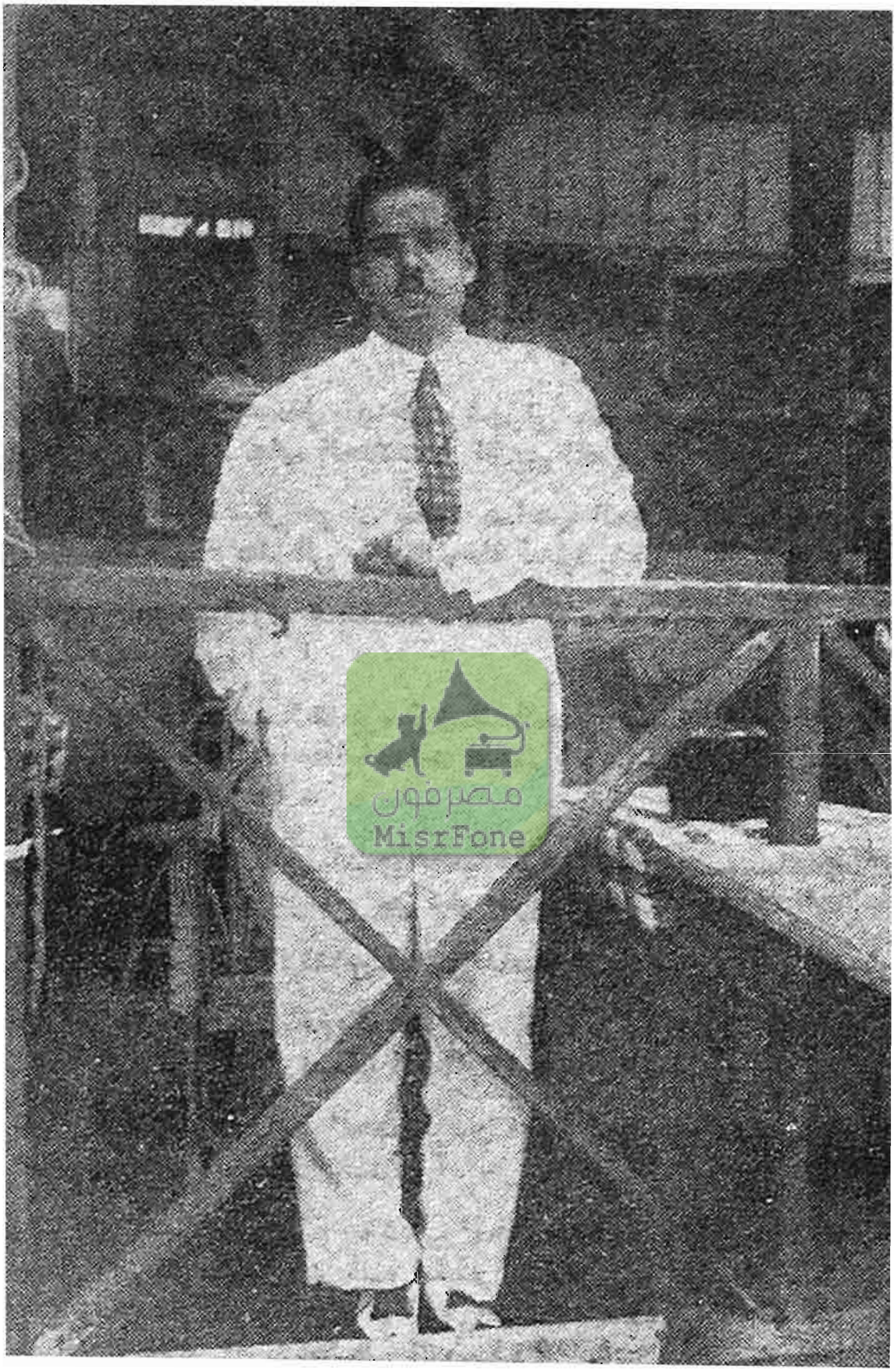
وعندما ارتفع اجر الفرقة من مائة قرش الى مائة وخمسين قرشا اصبحنا أثرياء ...

ورای ابی ان نقلد الاثرياء ! انهم يلتقطون لاولادهم صورا فوتوغرافية .. فلماذا لانذهب نحن ايضا الى المصوراتى ؟

وذهبنا الى مصوراتى فى مدينة الزقازيق . واصبت انا واخى بنوبة من الضحك أمام المصوراتى ! فقد كان المصوراتى يقف وراء الكاميرا تحت الملاءة السوداء وكان منظرا غريبا جعلنا نغرق فى الضحك !

وراح المصوراتى يرجو ابى ان يمنعنى انا واخى من الاستمرار فى الضحك حتى يلتقط الصورة .. فان اصول التصوير يومها كانت تقضى بالا يضحك ابدا صاحب الصورة ! يجب ان يقف جامدا كالتمثال حتى يلتقط المصور صورته ! وبعد محاولات متكررة تحولنا الى تماثيل ! والتقطت اول صورة لنا !

وكان ابى غير مستريح لفكرة اشتغال ابنته بالغناء . كان لايمانع فى ان يغنى ولده .. اما ان تغنى ابنته فلا !



خالد .. شقيق ام كلثوم فى سنوات شبابه وهو يستجم فى راس البر ..
ان وفاة خالد سببت لام كلثوم الى ازمة نفسية عرفتها فى حياتها ..

وكان هذا هو السر في المقال الذي وضعته على راسي عدة سنوات كان والدي يريد أن ينسى ان ابنتـــه هي التي تغني ، كان يريد ان يوهم نفسه أن ام كلثوم ولد لا بنت !

« ومسحت » بقدمي الصغيرتين القطر المصرى قـرية قرية .. قبل ان اضع قدمي في القاهرة .

وشاء حظي ان اترك في كل قرية عـددا من المعجبين بصـوت الطفلة الصغيرة !

ورأى والدي ان يستغل نجاحي وشهرتي .. فاصر على فرض شرط اضافي على أصحاب الحفلات في القرى المجاورة !

وكان الشرط الاضافي هو ان يتعهد صاحب الحفلة بان يقدم لنا حميرا تحملنا من قريتنا الى مكان الحفلة ذهابا وايابا !

وكان « الطرف الاول » ينفـــذ نصف الاتفاق .. ويهرب من تنفيذ النصف الثاني !

كان اصحاب الحفـــلات يرسلون لنا الحمير لتحملنا الى مكان الحفلة .. فاذا انتهت الحفلة اختفت الحمير ! وهـــكذا كنا نركب « ذهابا » ونمشي « ايابا »

ولم تكن المسافات التي نقطعها مشيا على الاقدام مســـافات بسيطة .. كانت عادة تتراوح بين كيلو مترين وخمسة كيلو مترات

ولم يكن السير على الاقدام اصعب متاعبنا !

كان الانتظار على ارصفة المحطات هو تعبنا الاكبر ! فقد كنا في كثير من الايام نقف على رصيف المحطة ١٢ ساعة كاملة !

كانت القطارات تمر امام المحطة مرتين ، مرة في الساعة السادسة صباحا ، ومرة في السادسة مساء !

وكنا بعد انتهاء كل حفلة نعود الى المحطة .. وفي كثير من الايام كنا نصل الى الرصيف بعد قيام القطار بدقائق .. فقـــد كانت قطارات زمان مع الاسف تتحرك في مواعيد محـــددة ! ! ولهذا كنا نضطر الى الانتظار ١٢ ساعة على الرصيف !

وكان الانتظار في معظم الايام وسط البرد الشديد او تحت الامطار الغزيرة التي كانت تحرص على استقبالنا في كل محطة نلجا اليها !

وفى احد الايام عرف ابى سر مفتاح باب استراحة الركاب !

وكان المفتاح هو حنجرة ام كلثوم !

لقد اقنع والدى ناظر المحطة بان يفتح لنا استراحة الركاب . وكان الثمن هو ان اغنى للناظر !

وغنيت على ارصفة مئات من محطات الوجه البحرى

وبدات اكتشف ان الدنيا اكبر من الوجه البحرى . وان هناك مدنا اخرى لا تقل اهمية عن المنصورة والزقازيق !

اكتشفت ان هناك مدينة جديدة اسمها القاهرة ! اكتشفتها بمحض الصدفة !

فقد حدث فى اثناء حديث عابر بين الثرى عز الدين يكن وناظر عزبته ، ان قال صاحب العزبة انه سيقيم فى قصره بحلوان كعادته كل عام احتفالا بليلة المعراج ، فقال ناظر العزبة :

والله عندنا بنت صوتها حلو !

فقال صاحب العزبة : هاتها تغنى لنا !

وسافرنا مع ناظر العزبة لاول مرة الى القاهرة ! ولا اذكر شيئا عن المدينة الكبيرة . ان صورها الصاخبة لم تعش فى ذاكرتى !

كل ما اذكره هو محطة باب اللوق ! ففى هذه المحطة اشترى لى والدى « كراملة » اعجبتنى وجعلتنى اتصور ان القاهرة بلد « الكراملة » الحلوة

وذهبنا الى قصر عز الدين بك يكن ، وخرج صاحب القصر لاستقبالنا ، ونظر لى من تحت الى فوق عدة مرات ثم سأل فى دهشة « هى دى اللى ح تقرا فى المولد » ؟

ولما هز ناظر العزبة راسه موافقا صاح عز الدين بك ايه لعب العيال ده ! بلاش كلام فارغ ! انزل مصر حالا ! وروحوا هاتوا الشيخ اسماعيل سكر ! يحيى لنا الحفلة !

ووضعونا مع الخدم فى البدروم . ولم ادهش من هذه المعاملة ، ولم اشعر باى اهانة لحقتنا ! وجلسنا الساعات فى البدروم والشيخ اسماعيل سكر يغنى للمدعوين ! وبعد ان اطرب الشيخ سكر

المدعوين واطمان صاحب الحفلة على نجاح حفلته ، قال الثرى عز الدين يكن للخادم « هاتوا البنت تغنى .. ونشوف حتقول ايه ! »

وخرجنا من البدروم الى الدور الاول .

وصعدت الى كنبة وبدات اغنى !

واستعادني الحاضرون عدة مرات ! واستعادنى معهم المطرب الكبير الشيخ اسماعيل سكر نفسه !

ثم جاءنى أحد الخدم وقال لي : الست عاوزه تشوف البنت فى الحرملك !

وصعدت الى الحرملك انا واخى خالد .. وادخلونا صالونا كبيرا مليئا بالاثاث الفاخر .

وسمعنا صوتا يقول لنا : اتفضلوا !

وتلفتنا نبحث عن مصدر الصوت .. فلم نر احدا فى الصالون !

وعاد الصوت يقول لنا : اتفضلوا .. اتفضلوا !

وعدنا نبحث عن صاحب هذا الصوت فى ارجاء الصالون !

وعاد الصوت يقول : اتفضلوا .. اتفضلوا .. اتفضلوا !

وهنا راينا صاحب الصوت .. انه طائر فى قفص !

واصبت بالفزع وصرخت : غراب يتكلم ! غراب يتكلم !

وعدت مع اخى من الصالون فى فزع ! واصطدمت عند الباب بحرم عز الدين بك يكن وانا ارتجف من شدة الخوف !

وراحت تهدىء من روعى وتسالنى عن سبب فزعى ؟ فرحت اصرخ : غراب : غراب بيتكلم !

وضحكت صاحبة البيت وقالت لى انه ليس غرابا .. انه بيغاء .. والببغاوات تتكلم !

وعدت الى قريتى احدث اصدقائى وصديقاتى عن القاهرة بلد العجائب .. انها البلد التى تتكلم فيها الغربان !



« عنــــدما نتعلم نعـــرف مــكاننا بين العلمـــاء .. وقد عــرفت مــكاني .. » !

ام كلثوم

من مذكرات أم كلثوم

قرار من أبي: لن نعود إلى القاهرة!

كنت اغنى بلا احساس ولا شعور !

كنت اردد الاغانى التى اسمعها من ابى بنفس الطريقة التى يردد بها التلميذ الصغير جدول الضرب ، وقواعد النحو والصرف !

ثم غيرنى فونوغراف !

كان فونوغراف العمدة ! فقد سمعت على هـذا الفونوغراف صوت الشيخ ابو العلا ، وهزنى صوته . كنت اشعر وانا اسمعه انه يغنى لى وحدى . وسمعت صوته مئات المرات وهـو يغنى ! افديه أن حفظ الهوى او ضيعا ! وسمعته وهو يغنى «وحقك انت المنى والطلب » .. وقصيدة « غيرى على السلوان قادر »

كان الفونوغراف يسكت .. ولكن صـوت الشيخ ابو العلا كان يستمر يغنى فى اذنى !

كان اطفال القرية يرددون اغنية « انا نازلة ادلع املا القلل » . اما انا فكنت اعيش مع اغانى الشيخ ابو العلا ، وكنت اتصور انه قد مات ! لم يخطر على بالى ان صاحب هذا الصوت يعيش فى الدنيا التى اعيش فيها !

ومرت السنون ...

وفى يوم من الايام كنت فى محطة السنبلاوين ، فسمعت صوتا يقول : الشيخ ابو العلا هنا !

ولم اصدق اذنى !

ورايت ابى يسرع نحو الرجل الكبير ويصـافحه فى احترام . واسرعت وراءه وامسكت يده ، ورحت احدثه على الفور عن اعجابى وتحول الشيخ ابو العلا عنى ليستأنف حديثه مع الاخرين .. ولكنى منعته من ان يكلم احدا غيرى ! امسكت بيده ورحت الح عليه ان

يأتى معى لزيارتنا فى القرية . واحس الرجل الكبير بتعلقى به ، وجاء معى الى بلدنا .. الى قرية « طماى » !

ودخلت الى امى . قلت لها : ان اهم انسان فى الدنيا سيتناول معـ... ـاء . كل حاجة عندك قدميها له . ادبحى كل الفراخ اللى عندنا واللى عند الجيران !

كنت لا اصدق عينى ! كنت اتصور اننى ارى « مناما » ولا اعيش فى الحقيقة !

ولما جلست امامه طلبت منه ان يغنى ! فطلب منى ان اغنى له اولا ! ورفضت ! فقد شعرت اننى لن اجسر على الغناء امام هـذا العملاق . واحسست انه ليس من المعقول ان اخدش اذنى هـذا المغنى العظيم بصوتى ..

ولكن ترددى ذاب امام قوة شخصيته . وبدات اغنى له .. وبدأ هو يغنى لى !

وشعرت ان فى بيتنا اجمل احلامى .. واحسست بضربات قلبى وانا اسمع صوته ! كنت أسمع قيثارة اجمل من الفونوغراف . فقد كان الشيخ ابو العلا اعظم مغن سمعته فى حيـاتى . ولا يزال هذا رايى حتى اليوم انه احسن من غنى . واحسن من لحن المعانى قبل الالفاظ .

وكان الرجل الكبير كريما معى . فقـد استمر يغنى . استمر يغنى لى وحدى مدة ساعات .

واقترح الشيخ ابو العلا على والدى ان يترك قرية « طماى » الصغيرة ، وينتقل الى القاهرة . فدهش ابى من هذا الاقتـراح !

وقال والدى : ان طماى بلدنا وماوانا ومأوى امواتنا . ولايمكن ان نترك طماى !

ورد الشيخ ابو العـلا : ان مستقبل ابنتك اكبر من « طماى » .. وحرام ان تحبس هذه الموهبة فى قرية صغيرة !

ولاول مرة فى حياتى بدات اناقش والدى !

وغير ابى موضوع الحديث !

ولكنى رحت « ازن » والح وارجـو . وعاد ابى يغير موضـوع الحديث !

ولكنى لم اتعب من « الزن » والالحـاح ، الى ان وقع لى حادث مسح فكرة الاقامة فى القاهرة من كل احلامى !

فقد اتفق احد اهالى القاهرة مع ابى على ان اغنى فى فرح ابنه فى كوم الشيخ سلامة المجاور لحى العتبة الخضراء بالقاهرة .

وعند سفرى الى القاهرة اخذت معى « تحويشة العمر » .

انها الخمسة عشر جنيها التى ادخرتها من مصروفى « وعيدتى » فى الاعياد

ونزلنا فى بيت صغير .. انه بيت صاحب الفرح .

وقبل خروجنا من البيت لاحياءالحفلة ، وضعت ثروتى الضخمة فى جيبى .

ولما انتهت الحفلة وعدت الى البيت ، اسرعت الى تحويشة العمر لاخرجها من جيبى .. فلم اجدها ! اختفت تحويشـة العمر التى تصورت انني سأشترى بها مدينة القاهرة كلها !

ولم اصدق عينى ! ورحت ابحث فى جيبى وجيب اخى ، وتحت الكرسى .. فلم اجد لها اثرا ! ولم اذرف الدموع كانت نكستى اقوى من الدموع !

واخفيت الحـادث عن ابى فى اول الامـر .. ثم اضطررت ان اعترف . ولن اقول الان ما قاله ابى لى وقتها .

وعاهدت نفسى الا ازور القاهرة بعد ذلك .

ولكن نداء القاهرة كان اقوى من ضياع اموال قارون !

فقد عدنا للقاهرة مرة اخرى . واقمنا فى حجرة بلوكاندة جوردون هاوس ، التى تطل على شارع فؤاد (٢٦ يوليو الان) . ومن شرفة حجرتى بهذا الفندق رايت السينما لاول مرة فى حياتى فقد كانت تطل على سينما « جوزى بالاس » . رايت رجالا ونساء يتحركون على الشاشة البيضاء . رايت شابا يقبل فتاة . رايت دنيا غريبة لم اشهدها لا فى طماى ولا فى الزقازيق .. ولا حتى فى المنصورة !

ولم يخطر ببالى وانا واقفة فى شرفة حجرتى بفندق جوردون هاوس ان ام كلثوم نفسـها ستظهر فى يوم من الايام على هـذه الشاشة البيضاء !



ام كلثوم تعزف على العود   صورة خاصه التقطت لها سنه ١٩٢٦

وكان فى حجرتنا بالفندق ثلاثة سرابر .. لابى ولاخى ولى .

وكنت اتصور ان هذا الفندق المتواضع هو اكبر فنادق القاهرة . فلم اكن يومها قد سمعت عن شبرد وسميراميس !

وكانت بحجرتنا الصغيرة شرفة تطل على شارع فؤاد ، وشرفة اخرى تطل على المدرسة الاعدادية . وكان الشيخ ابو العلا يحضر الى زيارتنا ، واجلس بجانبه استمع الى كلامه وغنائه .

كنت اسهر طوال الليل اسمع احب الاصوات الى قلبى ! فقد كان غناؤه احب لى من النوم !

وفى احدى الليالى ونحن جالسون فى الشرفة غنى لى الشيخ ابو العلا ثم التفت الى وقال : أنا غنيت لك كثير .. ما تغنى لى بقى وغنيت له !

وسكت الشيخ طويلا .. ثم رايت دمعة تسقط من عينه ؟ ثم قال : لن افترق عن هذا الصوت طولَ عمرىَ !

وفعلا : لم نفترق منذ تلك اللحظة . كان يصحبنى مع ابى واخى فى كل حفلاتى وفى كلَ مكان اذهب اليه .

وغيرنى الشيخ ابو العلا . علمنى ان افهم الكلام قبلَ ان احفظه واغنيه .

فقد كنت حتى هذه اللحظة مثل ببغـاء الثرى عز الدين يكن ؟ أردد الكلام بلا فهم ولا اهتمام !

وبدأت الكلمات غير المفهومة تتعثر فى فمى ، وترفض الخروج من شفتى !

وفى احدى الليالى كنت اغنى مع افراد الفرقة جـل من طرز الياسمين فوق خدك بالجلنار ، واصطفى ذا الجمان الثمين معدنا من لك العقار !

ووقفت كلمة « الجمان » فى فمى ، ورفضت الخروج من بين شفتى ! وتركت باقى افراد الفرقة ينطقون الكلمة وحدهم !

وتصور ابى اننى نسيتها ، فلم يعر الامر اهتماما !

ولما تكرر توقفى عند كلمة « الجمان » احس والدى بان المسالة ليست مسألة نسيان ، فسالنى ، لماذا لا اغنى هذه الكلمة .

واجبته : موش عارفة اقولهـا ازاى ! موش عارفة اقولها وانا باضحك والا اقولها وانا مكشرة .. انا موش فاهمة معناها ايه !

وكانت هذه هى المرة الاولى التى اواجه فيها والدى بما تعلمته من الشيخ ابو العـلا .. وهو انه يجب ان افهم المعانى قبل ان اغنى الكلمات !

وعن طريق الشيخ ابو العلا عرفت الشاعر احمد رامى !

فقد التقى احمد رامى بالشيخ ابو العلا ذات يوم ، وساله فيه بنت بتغنى اسمها ام كلثوم .. ايه رايك فيها ؟

فأجاب ابو العلا : دى بتقول لروحها « آه » !

وفى احدى حفلاتى بحديقة الازبكية اقترب منى شاب وقال لى : انا احمد رامى !

ورايت امامى لاول مرة الشاعر الذى اغنى اشعاره !

واردت ان اقول لهذا الشاعر : اهلا .. فغنيت له قصـيدته « الصب تفضحه عيونه » .. وكانت مفاجأة له .. !

وكان رامى يحب الغناء .. وكنت اعشق الشعر .

وكانت هوايتى للشعر قد بدأت بكتاب وجدته مع اخى ! اخذته منه لاتفرج عليه . كان الكتاب هـو قصة « العبرات » لمصطفى لطفى المنفلوطى !

وامسكت الكتاب لاتفرج عليه ، واعيده الى اخى !

وفتحت الصفحة الاولى .. ولم اترك الكتاب الا بعد ان وصلت الى الصفحة الاخيرة . وعشقت المنفلوطى . قرات له « النظرات » و « العبرات » وكل القصص التى كتبها !

⊙❖⊙

وفى أحد الايام شعرت بجوع للقـراءة . أردت ان اقرأ رحت اقلب كتب القصص التى توجـد فى بيتنا الصغير ، فوجدت أننى قرأتها كلها . قرأتها عشرات المرات . وبدأت أبحث عن كتاب جديد وفى تلك اللحظة بدأت هوايتى للشعر . كنت احفـظ الشعر ولا افهمه . كنت اتصوره كلمات موزونة يعدها الشعراء للغناء .

وفى احد الايام ، رحت ابحث فى حجرتنا الصغيرة عن كتاب اسلى به نفسى . وفتحت ديوان شعر ابن الفارض . وقرات البيت الاول فى القصيدة .. ففهمته . ورحت اقرا باقى القصيدة فى لهفة .

وبعد ديوان ابن الفارض قرات ديوانى ابن الرومى والبحترى . ثم قرات الاغانى الذى يتالف من ١١ جزءا ، واخترت منه قصائد جديرة بأن تغنى .

ثم قرات « الامالى والحماسة » . وبدات اشترى دواوين الشعراء بعد ان كنت استعيرها من ابى . وقرات ديوان المتنبى والشريف الرضى ومهيار الديلمى .

واصبحت اعشق الشعر !

اصبحت اقرا القصيدة بنفس اللهفة والمتعة والشغف التى تقرا بها فتاة اول قصة غرامية !

احمد رامى الفضل كل الفضل فى تذوقى الشعر وتفهم معانيه . كان يقدم لى فى كل مرة يزورنى فيها ديوان شاعر .

وتعلمت موازين الشعر ، لدرجة اننى بدات احس بالبيت المكسور ، والبيت الذى يقف على قدميه !

ولكنى لم افكر فى يوم واحد ان انظم بيتا واحدا من الشعر . لعل السبب هو كثرة قراءاتى .. ولاننى قرات الشعر الجيد وتذوقته .

ولولا قراءاتى لحاولت ان انظم عددا من القصائد اعبر فيها عن مشاعرى . ولكننا عندما نتعلم نعرف مكاننا بين العلماء . وقد عرفت مكانى !

واستمرت صداقتى باستاذى الشيخ ابو العلا سنين طويلة . كنت ابحث عنه فى كل مكان لاستظل برعايته واستاذيته وكنت اطالبه فى كل مرة نلتقى فيها بان يغنى لى ! كان غناؤه هو غذاء روحى

وفجأة .. ثقل لسانه ، واصبح يتعثر فى نطق الكلمات .. ومع ذلك كان يغنى لى ! وعندما يخونه صوته اثناء الغناء كان يقول لى :

انت عارفة انا عاوز اقول ايه ؟!

وفى احدى الليالى فوجئت بوفاة الشيخ ابو العلا ..



ام كلثوم سنة ١٩٢٦ ، صورة لاتوجد منها نسخة ايضا عند ام كلثوم ..

وامتلأ راسي بقصائد الشعراء .. بعد ان امتلأت روحى باغانى الشيخ ابو العلا .

ولم استطع ان ابقى فى بيتى .

ولم احتمل أن اذهب الى بيته !

مشيت فى شوارع حى الزمالك شارعا شارعا ؟ ولم اذرف دمعة واحدة !

مشيت الى شارع فؤاد ثم الى شارع الملكة نازلى ، ثم عدت امشى فى شوارع الزمالك مرة اخرى ! كنت اتصور اننى سأغسل شوارع القاهرة فى تلك الليلة بدموعى . ولكن دموعى تحجرت فى عينى .

وكان يمشى معى اخى خالد وعازف الكمان سامى الشوا . كانا يحاولان اقناعى بالبكاء تحت اى سقف . ولكننى كنت ارفض .

وقضيت الليل هائمة على وجهى . ابكى بغير دموع استاذى الذى علمنى كيف اعبر عن المعانى بالنغمات

وتعرفت بكبار الموسيقيين وبالاستاذين حسنى انور وامين المهدى وهو ابرع من عزف على العود .. ونشأت بيننا صداقة عائلية .

واثناء اصطيافى بالاسكندرية زارنى امين المهدى ودعانى لزيارة بيته الذى يطل على ترعة المحمودية . وفى هذا البيت التقيت باول صديقة لى .

كانت تلميذة فى « الميردى ديبه » . وكان اسمها روحية المهدى انها ابنة امين المهدى .

لقد اصبحنا صديقتين بعد ساعة من اللقاء . احسسنا تجاوبا عجيبا ، شعرت كل منا انها تعرف الاخرى منذ سنوات وسنوات !

وبدأت صداقتنا تقوى على مر الايام .

ولما انتهت شهور الاصطياف وعدنا الى القاهرة كنت احرص على زيارة بيت امين المهدى كل يوم احد . فقد كان يوم الاحد هو اجازة روحية من مدرستها .

وكانت زوجية تقيم فى بيت بباب الخلق يواجه دار الكتب . وفى كل اسبوع كنت اقطع المسافة من شقتى بعمارة بهلو بالزمالك الى ميدان بباب الخلق التقى بصديقتى التلميذة وافتح لها قلبى وتفتح لى قلبها ، وتحدثنى عن احلامها واحدثها عن احلامى .

و القاهرة بالنسبة لى هى الطريق من الزمالك الى باب الخلق . فقد كنت لا اخرج من بيتى الا لاذهب الى زوجية يوم الاحد ، او لأذهب فى المساء الى حديقة الازبكية لاغنى او عندما اذهب فى الليل الى الفرح الذى سأغنى فيه .

وفى خلال السنوات الاربع الاولى التى مضيتها فى القاهرة .. كانت العاصمة بالنسبة لى هى شارع فؤاد « ٢٦ يوليو الان » وميدان قصر النيل وميدان عابدين وميدان باب الخلق .

فى خلال السنوات الاربع لم ادخل السينما مرة واحدة !

فى خلال السنوات الاربع لم ادخل محلا تجاريا مشهورا او مطعما كبيرا .

فى خلال السنوات الاربع لم ادخل الا مسرحا واحدا هو مسرح الماجستيك ، فقد كان والدى يحب روايات على الكسار

وكانت معلوماتى عن القاهرة هى ما اقرؤه فى الصحف والمجلات ، واسمعه من الناس .

ومع هذا الحصار الذى كنت اعيش فيه ، احببت القاهرة وعشقتها . كنت احس اننى اعيش فى اجمل بلد فى الدنيا . أحببت اهلها .

وجدت فى هذه المدينة الحلوة ضمانا واهتماما وتشجيعا . وجدت فيها مجدا لم يخطر لى على بال !

وفى يوم من الايام عاد والدى الى بيتنا وهو متجهم الوجه .. ودخل حجرته .. ونادى على والدتى ، فدخلت واقفلا الباب .

وسمعت همسا لم اهتم به .

ولكنى رايت امى تفتح الباب ، وتبدا فى حزم الحقائب .

وسالت امى ! ماذا جرى ؟

فسكتت ولم ترد .. استمرت تملأ الحقائب بالملابس .

وسألت والدى ، فقال بحزم : خلاص ! احنا راجعين بلدنا ! لن نبقى فى مصر بعد الان .. ولن نعود اليها !

ودهشت من هذا القرار العجيب !

كيف نهجر القاهرة وقد التقيت فيها بمجد لم احلم به . كيف اهجر « ام الدنيا » بعد ان احببتها واحببت من فيها ؟ وبعد ان التقيت فيها بحظى .

ورحت الح على والدتى ان تبرر لى قرار والدى ! رحت اقول لها اريد ان اعرف لماذا سنهجر القاهرة .

واشارت لى والدتى الى مجلة ملقاة على الارض .

والتقطت المجلة . انها مجلة « المسرح » التى يصدرها الناقد المسرحى عبد المجيد حلمى .. ورحت اقلب صفحات المجلة فى لهفة .. فلم اجد ردا على سؤالى .

وعدت اقراها سطرا سطرا .

ثم سقطت المجلة من يدى !

لقد نشرت المجلة خبرا عجيبا عنى ! كان خبرا كاذبا عن سمعتى ولكن المرحوم عبد المجيد حلمى كان يعجب فى ذلك الوقت بالسيدة منيرة المهدية . وبدلا من ان يقدم لها باقة ورد .. رمى تحت اقدامها شرف المطربة الجديدة !

ولكن .. هل من العدالة ان يضحى ابى بمستقبلى بسبب خبر كاذب ؟

هل من العدالة ان تدفع الضحية ثمن سكينة الجزار ؟

ان والدى يعرف ان الخبر لا اساس له من الصحة .. فهل الطريقة للاحتجاج على الخبر ان نجمع ملابسنا ونهاجر الى قرية طماى ؟

ورحت استنجد باصدقاء ابى !

رحت ارجو كلا منهم ان يحضر لاقناع ابى بالعدول عن الهجرة من القاهرة .

وجاء الاصدقاء الى بيتنا ليحاولوا اقناع ابى بالبقاء فى القاهرة

قالوا له أن ابنته اصبحت مشهورة ، وان للشهرة ضرائب يجب ان يدفعها صاحبها ! واولى هذه الضرائب ان يحتمل نشر الاكاذيب التى تنشرها عنه بعض المجلات الصغيرة .

ورفض ابى وساطة هذه الوفود . اصر على الهجرة الى قريتنا « طماى » .

وعندها استسلمت للامر الواقع . وجلست فى حجرتى اكتب خطابات وداع لصديقاتى ومعارفى . كنت اكتبها بدموعى .

وبين الخطابات التى كتبها خطاب عصرت فيه قلبى ! ارسلته الى صديقتى التلميذة فى مدرسة « الميردى دييه » . لقد كتب هذا الخطاب بدموعى . حدثتهـا عن قرار ابى . ورحت أودعها واودع القاهرة الحبيبة .. وكأننى اودع الدنيا كلها !

وجاءت أسرة المهدى الى بيتنا .. فوجدوا الحقائب معدة !

وتكلمت سيدات الاسرة ، ورحن يناقشن والدى فى قراره فى بلاغة وحكمة ومنطق .

ولم يقتنع ابى !

ثم ركزن سهامهن على عاطفة ابى وحبه لى . قلن له ان قراره سيقضى على مستقبلى ! سيدفن المجد الذى كان ينتظرنى تحت تراب قرية طماى .

ولم يقتنع ابى .

واخيرا تكلم امين المهدى ..

قال لابى : ان معنى مغادرتكم القاهرة ان الخبر الذى نشرته مجلة « المسرح » عن أم كلثوم هو خبر صحيح .. فالنـاس تهرب من الحقيقة ، ولا تهرب من الاكاذيب !

وقام ابى من مقعده .. وبدا يفتح حقائبنـا ويخرج منها الملابس

وحتى تلك اللحظة كنت اقيم فى القاهرة فترات متقطعة ، ثم اعود الى الريف ..

اما الآن ، من هذه السنة ـ ١٩٢٦ ـ فقد بدات اقيم فى القاهرة بصفة اساسية .. ولكنها كانت اقامة صعبة جدا فى البداية ..

⊙✣⊙

انتهى الجزء الاول من مذكرات ام كلثوم ..

والسؤال الآن : كيف كانت القاهرة سنة ١٩٢٦ ؟ القاهرة التى ستشهد من الآن فتاة قروية .. ترتدى عقالا وبالطو ازرق .. وتغنى المدائح النبوية ؟ ..

سؤال يجيب عليه الفصل التالى ، قبل ان نعود من جديد الى مذكرات ام كلثوم ..

في القاهرة غناء للرجال وغناء للنساء • في القاهرة موسيقى للفقراء ، وموسيقى للاغنياء ؟

القاهرة ٢٦

القاهرة .

١٩٢٦

البيضة فى مصر بمليم .

رطل اللحم بقرشين . مشفى بثلاثة قروش .

علبة السجاير ماركة « العنبرول » بقرشين .

الاوتوموبيل الفاخر خمسة محلات بـ ٣٦٠ جنيها .

الرواية المقررة على طلبة البكالوريا هى زهراب ورستم .

على افندى الكسار بربرى مصر الوحيد بمثل رواية البربرى فى الجيش .

نابغة مصر فى التمثيل يوسف وهبى يقوم بطولة رواية الذبائح .

المستر سمسون رئيس النيابة المختلطة بالمنصورة يحضر حفل مدرسة المنصورة الاميرية

و نحن فى سنة ١٩٢٦ ..

السكان فى القطر المصرى كله عددهم محدود . بالضبط ١٢مليونا و٢١٧ الف نسمة . من بين كل مائة من السكان فى مصر هناك ٢٦ يموتون بعد سنة من مولدهم . المرض وسوء التغذية سبب ذلك.

الذين يعرفون القراءة والكتابة فى مملكة مصر ـ مجرد القراءة والكتابة ـ عددهم ١٩٧ فردا فى كل الف من السكان .

الصحف فى مصر محدودة . الاخبار فيها محدودة ايضا . منها تلك العناوين المنشورة فى مقدمة هذا الفصل .

من الاخبار التى تبرزها مجلة « الطائف المصورة » ايضا . خبر يقول « .. يشاع ان الحكومة المصرية تنوى فتح نفق من السيدة زينب الى محطة باب الحديد لمرور سكة حديد حلوان تحت الارض بعد أن تتحول قاطراتها من بخارية الى كهربائيـــة » . ان الزحام سبب فى هذا المشروع . بطء القطارات سبب آخر . ان السفر بالقطار من القاهرة الى الاسكندرية يستغرق سبع ساعات . لهذا يسمون القطار « المستعجلة » !

نفس المجلة تنشر على عرض صفحة كاملة منها صـــورة كتبت تحتها قائلة « هذه صور، اتحفنا بها المصور الشهير الخواجة زولا لحضرات أعضاء لجنة الاحتفال بتكريم فخامة المندوب الســـامى جورج لويد واللادى قرينته بصفته ممثلا لانجلترا صديقة مصر الذى نحيى فيه رسول السلام بين الشعبين » !

هذه واحدة من مظـــاهر كثيرة لتفسخ المجتمع المصرى فى تلك الفترة . فبعد ثورة عظيمة قام بها الشعب سنة ١٩١٩ بدأت مصر تحارب نفسها .. بينما يتفرج عليها محتل غاصب وحاكم مستبد .

ولقد ادى انتكاس الثورة الى تفشى ظواهر مرضية فى المجتمع المصرى ..

فالانتهازيون والوصوليون منتشرون فى الحياة العامة . لخصهم سيد درويش منذ سنوات عندما غنى فى اوبريت « العشرة الطيبة » علشان ما نعلى ونعلى ونعلى .. لازم نطاطى نطاطى نطاطى !

والصراع دائر علنا بين الاحتلال ومجموعة من المثقفين الشـــبان انتجتهم ثـــورة ١٩١٩ منهم طه حسين وتوفيق الحكيم والعقـــاد ومحمد حسين هيكل ، وفكرى اباظة .

والشكوى عامة من الانحلال الاخلاقى . بسببها نشرت المجلات صورة لـ « .. نفر من اعضاء جمعيـــة الشرف التى تأسست فى القاهرة لنشر الفضيلة ونصح الشبان بالابتعاد عن الرذيلة » .

والرذيلة لها جمهور واسع يغذيها .

من هذا الجمهور الجنـــود الانجليز الذين يمرحون فى شـــوارع مصر ويسهرون لياليها . اماكن السهر تنحصر بين ميدان الاوبرا فى القاهرة وبين شارع عماد الدين والفجالة . فى شارع عماد الدين تستطيع ان تشرب البيرة والويسكى . اذا اردت « العرقى » فاتجه

الى الفجالة « البوظة » فى شارع كلوت بك . على امتداد هذه الشوارع تستطيع ان تقرأ هذه اللافتات « خمارة مانولى » ، « بار خرستو » مقهى « كوستى » ، بار « بنايوتى » خمارة « خرالمبو »

واذا سرت فى شارع محمد على نجد على يمينك وعلى يسارك دكاكين صغيرة ملقت على جدرانها آلات الطرب من عود ورق ودربكة فوق الدكاكين اعلانات بأسماء اصحابها من اهل الفن « الاسطى حمدة » مثلا . عوادة . « الاسطى زوبة » . عالمة . « نعيمة المصرية » ارتيست .

داخل هذه الدكاكين توجد فئة من المتعهدين نسمى « المطيباتية » ان « المطيباتى » نتفق مع الزبائن ويقتسم الاجر . وفى ليلة الفرح يرتدى الملابس المزركشة ويضع خاتما فى اصبعه . وطوال غناء « العالمة » فان المطيباتى مسئول عن استمرار آهات المعجبين من الجمهور فى كل مكان من السرادق .

اذا وصلت الى شارع عماد الدين فسوف نجد كازينو دى بارى مسرح البرنتانيا . مسرح الاجبسيانا . الرينسانس . الابى دى روز الكوزمو ثم .. مسرح رمسيس

هنا تجد نوعا آخر من اهل الفن والطرب والموسيقى .

ان فى القاهرة موسيقى للفقراء .. وموسيقى للاغنياء .

فى القاهرة غناء للرجال .. وغناء للنساء .

فصاحب الفرح .. عندما يكون ثريا .. فانه يدعو نوعين من المطربين مطرب له وللوجهاء . واخر للجمهور العادى

☼ ان مطرب الاغنياء يرتدى بدلة . وهو صييت معروف باسمه الشيخ حامد مرسى .. اسماعيل سكر .. عبد اللطف البنا .. الخ

ومطرب الفقراء يرتدى الجلباب . انه صييت معروف بصفته . من هؤلاء مثلا فرقة الخضرى ، والقهوجى ، وحسين الكوجى ، وشحات الحلوانى .. الخ .

● مطرب الاغنياء يحيى الليلة الرئيسية . ليلة الزفاف .

ومطرب الفقراء يحيى الليالى السابقة على الزفاف .

● وعندما يغنى مطرب الاغنياء يستاجر الثرى ماكينة كهرباء .



ام كلثوم فى راس البر ايضـــا
جلسة على البلاج مع كتـاب عن الشعر العربى القديم

فالمدعوون كلهم وجهاء. اما عندما يغنى مطرب الفقراء فان صاحب الفرح يستاجر كلوبات غاز

● واذا اجتمع المطربان فى ليلة واحدة فان مطرب الاغنياء يغنى فى الحفل . بينما الآخر يغنى فى الاستراحة !

● مطرب الاغنياء مفرغ للغناء . ومطرب الفقراء غير متفرغ . لا يستطيع .. ولذلك كان من الشائع أن يعمل بأكثر من حرفة .. من بينها الغناء او التلحين . فنجد فى شوارع القاهرة لافتة كتب عليها « بائع يانصيب وسجاير .. ومغنى » . لافتة اخرى « ملحن اناشيد ومقرىء مدائح نبوية ومشخص » . لافتة ثالثة « حانوتى ومقرىء ومشخصاتى » . رابعة « دار الجيلاتى والتشخيص والتلحين » ! .

وعندما بدات ام كلثوم تغنى فى القاهرة فلقد كانت ما تزال تنتمى الى الدائرة الثانية : صالح عبدالحى يغنى فى ليلة الفرح ، وهى تغنى فى الليالى السابقة على الفرح . هى نفسها تأتى الى الفرح راكبة ، ثم تعود بعد الفرح سيرا على الاقدام هى نفسها فقيرة ، تغنى المدائح النبوية ترتدى العقال على راسها وبالطو أزرق على جسمها . ملابس متواضعة ومازال عليها ان تحارب لكى تدخل الدائرة الاخرى المغلقة دائرة المطربين المشهورين او نصف المشهورين . ان عليها ان تفعل ذلك مع الانخفاض الشديد فى الاحترام الذى تعطيه المجتمع لاهل الطرب

ان كلوت بك مثلا قدم صورة حية لذلك عندما سبق أن سجل فى كتابه « وصف مصر » يقول : « .. والمغنون المصريون الذين صناعتهم الغناء يسمون بالآلاتية مفرد آلاتى . وتتألف منهم فى مصر طبقة محتقرة فاسدة الاخلاق . اذا جىء بهم الى منازل الخاصة تقاضوا اجرا لا يتجاوز ما يعادل ثلاثة فرنكات الى اربعة فى الليلة الواحدة . والمدعوون لسماعهم يغدقون عليهم عادة من محض كرمهم شيئا من المال يضاف الى تلك الاجرة الزهيدة وتقدم اليهم اثناء الغناء المشروبات الخمرية كالعرقى وغيره. وهم يفرطون فى شربها ويحدث احيانا وقد لعبت الخمر بعقولهم ان يفقدوا رشدهم ويسقطوا على الارض. وفى مصر مغنيات يسمين بالعوالم ، وهى كلمة اطلقها الاوربيون على جميع الراقصات من غير تمييز ولا استثناء » .

ان كلوت بك يصف الغناء والموسيقى فى مصر خلال القرن التاسع

عشر . ومع ذلك فحتى هذه السنة ـ ١٩٢٦ ـ كانت النظرة الى الفن عموما لم تتغير بعد كثيرا .

فعندما بدا توفيق الحكيم يكتب للمسرح فى القاهرة خلال العشرينات وصفه احد اصدقائه قائلا انه « .. منخرط فى زمرة اهل الفن والعياذ بالله » ! . من مذكرات توفيق الحكيم .

وعندما عبر المرحوم زكريا احمد لابيه عن رغبته فى العمل بالغناء والتلحين قال له والده الشيخ احمد صقر مرزبان « بقى يا ابنى تبقى من عيلة مرزبان .. وتطلع من بتوع ياليل ياعين ؟! » .. مذكرات زكريا احمد .

وهذه النظرة لم تقتصر على الشخص العادى .. بل هى ممتدة الى الحكومة ايضا . ان تطوير ورعاية الفن ـ هذا راى الحكومة ـ هو من اختصاص وزارة الاشغال ! انه كرصف الطرق وبناء الجسور والترع !

وعندما نشرت الصحف فى سنة ١٩٢٦ خبر ايفاد اول بعثة فنية مصرية قالت « اوفدت الحكومة المصرية فى العام الماضى اول بعثة لدراسة التمثيل مكونة من فرد واحد هو زكى افندى طليمات الموظف بوزارة الاشغال »

ووزارة الاشغال هى التى اشرفت على اقامة اول مسابقة فنية فى سنة ١٩٢٦ . وكانت الجوائز الاولى فيها من نصيب : زكى رستم فى التمثيل التراجيدى بشارة افندى يواكيم فى التمثيل الكوميدى .. السيدة فيكتوريا موسى فى التمثيل الكوميدى للسيدات . و .. السيدة منيرة المهدية فى الغناء المسرحى .

ان منيرة المهدية هى سيدة الغناء فى مصر منذ سنوات طويلة مضت .. الى جانبها توجد السيدة نعيمة المصرية . السيدة توحيدة . السيدة فتحية احمد الآنسة ام كلثوم !

والى جانب هؤلاء توجد من الممثلات : فيكتوريا كوهين وشقيقتها هزبيت كوهين ، مارى منصور ، دوللى انطون ، رئيبة رشدى وشقيقتها فاطمة رشدى ، دولت ابيض ، امينة رزق ، وابريز ستاتى .

ان انتشار الاسماء الاجنبية فى الوسط الفنى سببه ان الفتاة فى مصر لم تكن قد دخلت بعد باب التمثيل على نطاق واسع . بل ان فرقة دار التمثيل العربى ، عندما قدمت للجمهور رواية « بنت

السبندر » سنة ١٩٢٦ ـ فانها اسندت دور المراة فيها الى الممثل حسن فائق . ونشرت له مجلة « المسرح » صـــــورة (براقة) بضفائر الشعر الطويلة والروج الفاقع .

والصحف نفسها كانت تنشر بين وقت وآخر صور الممثلات اللامعـــات .. فى ازياء الرجال ! مرة تنشر صورا لزينب صدقى وفاطمة رشدى بالطربوش والبدلة : ومرة تنشر صورا لفاطمـــة اليوسف وبديعة مصابنى وعزيزة امير وامينة محمد وفتحية أحمد فى ملابس (الافندية والخواجات) !.

و .. نحن فى سنة ١٩٢٦

ان المظهر الرئيسى للاهتمام بالفن هو الصحف . ان الصحف والمجلات خصصت عددا من أكبر كتابها لنقد الحركة المسرحيـــة والغنائية والموسيقية . محمد التابعى يكتب عن المسرح فى (الاهرام) .. التوقيـــع « حنـــدس » . ابراهيم المصرى يكتب فى مجـــلة « التمثيل » . زكى طليمات فى « المقطم » . عبد المجيد حلمى فى « المسرح » . سعيد عبده فى روزاليوسف .. الخ .

ولكن النقد لم يكن امرا سهلا . ان احد النقاد كتب كلمة خفيفة عن تمثيل السيدة مارى منصور .. ولكن « .. السيدة لم تر رايه » فارسلت وراءه نفرا من أصحابها ليلقوا عليه درسا فى فن الكتابة .. وليبرهنوا له على أن العصا أقوى حجة من « القلم » !

صحفى آخر .. « هددته ممثلة فى مسرح كبير بالشبشب فى الطريق العام ، والقت عليه محاضرة طويلة عن اصله واصل آبائه واجداده » !

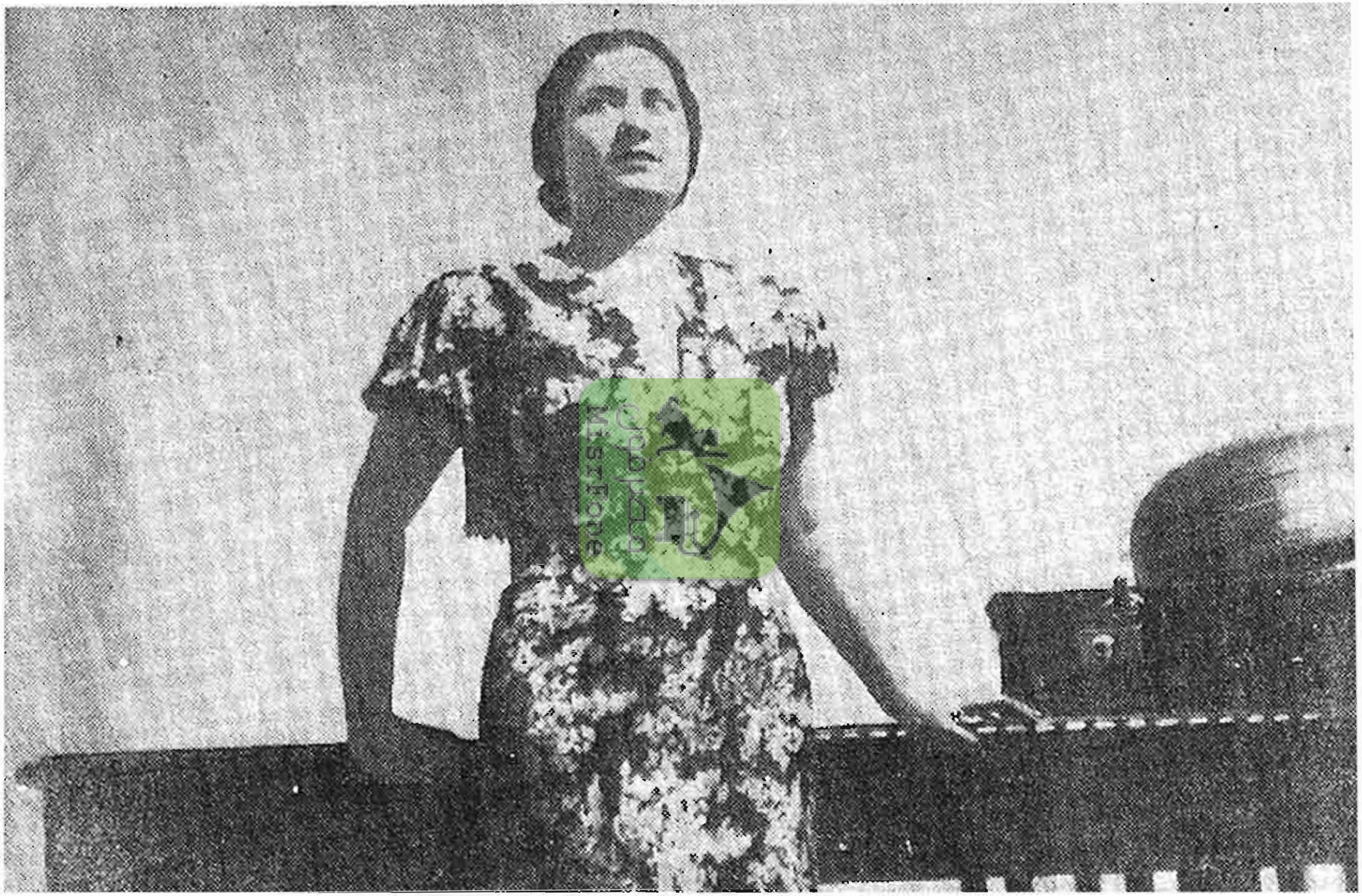
ناقد ثالث كتب مقالا عن رواية « قمر الزمان » انتقد فيه بشدة السيدة منيرة المهدية . ثم « .. اضطر بعدها الى أن يحمل شومة فى يده اينما سار ليدافع بها عن نفسه ـ رايه ـ ضـــد فتوات عماد الدين الذين ارسلتهم وراءه السيدة ليتفاهموا معه » .

ان السيدة منيرة تمثل وتغنى ..

والاتجاه فى الغناء كان متذبذبا . فبعد نهضـــة قصيرة فى المسرح الغنائى مثلها سيد درويش .. بدأ الغنـــاء يبتعد عن التواشيح ولكنه يقترب من الخـــلاعة . ان أحد الشعراء قدم مرة قصـــيدة شعرية طويلة الى كامل الخلعى لكى يلحنها فصاح فيه الخلعى قائلا :

كيف يمكن تلحين ذلك ؟ هذا شريط ترمواى وليست قصـــيدة !

أما الاغانى المنتشرة فكانت تختلف .



ام كلثوم .. مع العود . صورة تحتفظ بها ام كلثوم لنفسها ..

مثلا .. الاغنية المشهورة التى الفها يونس القاضى وغناها عبد اللطيف البنا تقول : ارخى الستارة اللى فريحنا .. احسن جيرانك تجرحنا !

هذه الاغنية تستطيع سماعها فى مقاهى القاهرة مثل : اللاوندية واسماء الكمسارية . أو - بالاسكندرية - فى مقهى شيبان أو مقهى الياس .

اغنية اخرى تقول : مين فيكو بابا مين فيكو ماما .. مش عارفة نينة من غير علامة !

اغنية ثالثة فى مقهى الالدرادو تقول : اوعى تكلمنى بابا جاى ورايا ..

تغنيها عزيزة المصرية .

اغنية رابعة تطلبها « السميعة » تقول :

ماتخافش عليا انا واحدة سجوريا
فى العشق يا انت واخدة الكالوريا

واذا سرت خطوات اخرى فى شارع عماد الدين فسوف تسمع اغنية الموسم

ايه اللى جرى .. فى المندرة
شىء ما افهموش
انا كنت لسه صغيرة !

وكان الجمهور يعبر عن اعجابه بالطرابيش . ان قذف الطربوش هو اقوى وسائل التعبير عن الاعجاب عند جمهور ١٩٢٦ .

والطرابيش تملأ جميع مسارح القاهرة .

الطرابيش تملأ مسرح « الرينسانس » بشارع فؤاد (اقيمت مكانه فيما بعد سينما ريفولى) .

وتملأ « تياترو ماجستيك » بشارع عماد الدين ، حيث تعرض رواية « الطمبورة » .

وتملأ ايضا مسرح رمسيس ، الذى يعرض رواية «حانة مكسيم» وتياترو حديقة الازبكية حيث تعمل فرقة عكاشة .



ام كلثوم .. مع باقه زهر وقفه ف شرفه منزلها .

ودار الطرب الجديدة ــ صالة بديعة مصابنى ــ بشارع عماد الدين . اعلانات الصالة تقول ان السيدة بديعة قد « خصصت مقاعد للسيدات بعيدا عن الرجال .. حفظا لكرامتهن » !

وتياترو برنتانيا ، حيث يقدم جوق السيدة منيرة المهدية الرواية الجديدة « البريكول » وتلحين كمل افندى الخلعى . خارج التياترو تقول الاعلانات « تقوم بالدور المهم فى الرواية السيدة منيرة المهدية سلطانة الطرب وكروانة مصر الوحيدة وبلبل وادي النيل » ! اعلانات اخرى تقول « الليلة تغنى السيدة منيرة المهدية . دكتوراه ممتازة فى الغناء والطرب بين العالم الشرقى جميعه » !

فى داخل المسرح تسمع منيرة المهدية وهى تغنى . عندما تغنى يقف خلفها « المذهبجية » او « السنيدة » ، الذين لا ينطقون ولا يتحركون الا بقدر .. وفى الوقت الذى تريده « الصييتة » !

ومنيرة المهدية بدأت العمل فى صالة الالدرادو ، حيث كان الذهب يتدفق من العمد والاعيان . وقد اصبحت بعد قليل تلقب بـ « سلطانة الطـــرب » ، حتى لقد كان يجتمع فى بيتهـا مجلس الوزراء .. واذا غضب منها احد رؤساء الوزارات .. كانت تصـالحه باغنية « تعالى يا شاطر نروح القنـــاطر » . ويصطلح رئيس الوزراء .. ويذهب الى القناطر !

ان هذا المستوى من الاغانى كان قد اضطر سيد درويش ـ قبل سنوات من وفاته ـ الى ان يجاريه عندما لحن وغنى : الاســـتيك فوق صدرك يضوى . و : يا أنا يا انت يا واد يا مأطاط !

وهذا المستوى من الخلاعة هو الذى اضطر سيد درويش ايضا ان يلحن منذ سنوات روايات كشكش بك التى كان نجيب الريحانى يقوم ببطولتها .

هنـ بالضبط يقول توفيق الحكيم فى كتابه « سجن العمر » : كان الاقبال على كشكش بك يعادل الاقبال على الكباريهات . ولم يـكن سر رواجه فى الحقيقة الا تلك الراقصات الجميـلات الشقراوات الاجنبيات الوافدات علينا من الخـارج عقب الحرب الاولى مثل « دينالسكا » ومثيلاتها ممن قذف بهن الجوع من بلاد منهـزمة كالنمسا والمانيا .. فجئن الى مصر المفتـوحة يومئذ لكل من هب ودب . فملأن المسارح والحانات وقاعات الليل . وكان الشـباب من الوارثين يقبلون على تلك المحال جميعا لمصاحبة الفتيات اخر الليل . وكان الواحد منهم يحضر الرواية الواحـــدة للريحانى كل ليلة ، لاحبا فى الرواية نفسها ـ التى سبق ان شـــهدها مرات ـ ولكن من اجل سبقان الفتيات .

حسنا ..

هذه هى السنة التى قررت فيها ام كلثوم ان تستقر بالقاهرة . وهذا هو نوع من الجمهور الذى تشهده مسارح ومقاهى القـاهرة سنة ١٩٢٦ .

هل تختار ام كلثوم هذا النوع جمهورا لهـــا ؟ هل تغنى له . ما تخافش عليا انا واحدة سجوريا ؟

هل تفعل ام كلثوم كذلك ؟

نعود الى مذكرات ام كلثوم ..



« ليس مهما ان اكون مطربه من الدرجة الثالثة ، المهم الا ابقى في الدرجة الثالثـــة » ! ..

ام كلثوم

من مذكرات أم كلثوم

صفعني أبي ليرضى الجمهور !

كانت القاهرة عندما بدانا نستقر فيها سنة **١٩٢٦ كالمريخ** فى كل شيء فيها نكتشفه لاول مرة . كل شيء فيها مختلف عما رأيناه من قبل . البيوت مختلفة . الشوارع مختلفة . السهرات مختلفة . الناس مختلفون . والجمهور مختلف .

فى الريف كان صاحب الفرح ياتى الينا مباشرة - الى ابى - للاتفاق على الغناء .

ولكن فى القاهرة لا بد من وجود متعهد الحفلات .

ان المتعهد هو الذى يتفق مع الجمهور من ناحية ، ثم هو الذى يتفق مع المطرب او المطربة من ناحية اخرى .. ويعد له مكان الغناء، ويتولى الدعاية له بين الجمهور .

وفى البداية عانينا كثيرا من التعامل مع متعهدى الحفلات . كان ابى طيب القلب خالص النية فى تعامله . وكان العمل فى القاهرة يتطلب صفات مختلفة . ويظهر ان منظر ابى كرجل ريفى .. ومنظرى كفتاة صغيرة .. بالعقال والبالطو .. يظهر ان هذا كان يغرى متعهدى الحفلات احيانا بالضحك علينا .

فى البداية مثلا كان صديق احمد متعهد الحفلات يحضر فى الصباح للاتفاق مع ابى على أجر الغناء . الاتفاق يقضى بأن يدفع لى سبعة جنيهات .

وعندما نذهب الى صالة الغناء فى المساء .. فان صديق احمد كان يدخلنا الى المسرح لنجلس خلف الستارة نستعد . ويبدا صديق احمد فى الشكوى لابى قائلا يا خسارة ! مفيش جمهور ! شوف الصالة فاضية ازاى !!

وعندما يتطلع ابى الى الصالة من خلف الستار .. يجد ان الصالة خالية من الجمهور فعلا . لان صديق احمد تعمد ان يحضرنا قبل موعد الجمهور بساعة او بساعتين !



من افلام ام كلثوم

والحل ؟!

كان الحل ينتهى دائما بنجاح المتعهد فى تخفيض الاجر المتفق عليه من قبل فى الصباح . فبدلا من سبعة جنيهات يصبح الاجر خمسة او اربعة جنيهات !

ويوافق ابى بحسن نية ، بينما المتعهد يتمتم بصوت مسموع ؟ ربنا يسهل بقى وماأخسرشى اكثر من كده !!

وعندما نبدا فى الغناء بعد ساعة او ساعتين .. عندما يفتح الستار .. نفاجا بان الصالة قد اصبحت مزدحمة بالجمهور الذى لا يجد مكانا !

ونبحث عن المتعهد فنجده .. فص ملح وداب !!

⊙❖⊙

على ان هذه المشكلة بدات تختفى عندما بدا ابى شيئا فشيئا يكتسب الخبرة فى التعامل مع متعهدى الحفلات بحيث لا ننخدع منهم بهذه السهوله .

بدات المشاكل مع المتعهدين تختفى ، لتحل محلها مشاكل اخرى .. مع الجمهور نفسه !

كان الجمهور فى البداية ، ياتى لكى يسمع غناء . انه ياتى اولا لكى يسلى نفسه . يسهر وينبسط ويفرفش .. ويسكر !

واذا سمع مطربا .. فالغناء لابد ان يتمشى مع مقتضيات السهرة .. يعنى لزوم الفرفشة !

لهذا السبب فان موجة الطقاطيق الخفيفة ـ الخليعة غالبا ـ هى التى كانت رائجة فى تلك الايام !

لم يكن هذا لوننا . كنت ما ازال اغنى المدائح النبوية .. والقصائد .. واصمم على التمسك بهما .

ولكن هذا التصميم خلق لى مشاكل كثيرة فى القاهرة .

اذكر اننى كنت فى احدى الليالى ـ سنه ١٩٢٦ ـ اغنى فى كازينو البوسفور .

ان كازينو البوسفور كان يقع فى ميدان المحطة ـ ميدان باب

الحديد حاليا ـ بالقاهرة ، وكان رسم الدخول للسهر فى الكازينو خمسة قروش ..

فى تلك الليلة بدات اغنى ـ كالعادة ـ فى الساعة العاشرة مساء .

ولم لكن هناك آلات تصاحبنى فى الغناء ، كان افراد التخت هم اربعة ، منهم ابى واخى خالد،وكنت ما أزال ارتدى العقال والبالطو الازرق .. واغنى المدائح النبوية والقصائد .

وبدات فى تلك الليلة اغنى : سبحان من ارسله رحمة لكل من يسمع او يبصر ..

وبعد قليل بدا افراد الجمهور يطلبون منى ان اتوقف عن الغناء وان أغنى لهم الاغانى السائدة فى تلك الفترة . اغانى خليعة ..

ان الاغانى المنتشرة فى تلك الفترة كانت فى منتهى الخلاعة ! الى درجة ان اغنية « بعد العشا .. يحلى الهزار والفرفشة » مثلا تعتبر اغنية غير خليعة بمقاييس تلك الايام وكان من المالوف ان يقوم اكثر من مطرب او مطربة بغناء نفس الاغنية ..

المهم .. طلب منى هؤلاء الافراد من الجمهور ان اغنى شيئا آخر بدلا من قصيدة ! سبحان من ارسله رحمة .

ورفضت ..

استمررت فى الغناء ! سبحان من ... ـ

فى هذه اللحظة بدات تعلو اصوات نفس الافراد من الجمهور لكى ترغمنى على الا استمر ..

بعد قليل بداوا يصفرون لمقاطعة غنائى ـ

ومرة اخرى استمررت فى الغناء ..

ولكن المسالة لم تقف عند هذا الحد . لقد وقف افراد منهم وهجموا على المسرح يريدون اغلاق الستار ؛ فى هذه اللحظة فقط بدات افقد اعصابى ..

كانت المسالة هى ان القادم الى الكازينو فى هذا المساء .. يعلم مقدما من التى ستغنى ، فالاعلان المعلق فى الخارج يحمل اسمى .

وهو يعلم ايضا لون الغناء الذى سيسمعه .. فهو اللون الذى كنت اقدمه ..

ويعلم ان الاغانى الخليعة التى يريدها لها أماكن اخرى تغنى فيها

فما معنى هذا الصفير ..؟!

المهم .. اننى لحظتها ثرت عندما هجموا على المسرح يحاولون اغلاق الستار ..

فى الواقع اننى شتمت هؤلاء الإفراد من الجمهور ..

ولم انتبه الا وابى يصفعنى بيده ! ..

كانت اول مرة اتلقى فيها مثل هذه الصفعة من ابى ، أول مرة يصفعنى فيها امام الجمهور ..

وبكيت ! ..

بكيت لاننى على حق .. وابى يعلم ذلك .

ولكن ابى كان على حق ايضا .. لقد كان أوسع منى ادراكا .

ان ابى ضربنى امام هؤلاء الافراد الثائرين من الجمهور .. لكى يرضيهم ! لكى يهدىء من ثورتهم ! لقد رأى الشر فى أعينهم وهم يهجمون على المسرح متجهين نحوى ..

وخشى ابى ان يحدث لى مكروه . خشى ان يؤذينى هؤلاء الافراد السكارى ، فتطوع بمعاقبتى عنهم . كما انه اراد ان يلقننى درسا فى الادب ! فمهما كانت الظروف ، لا يجوز لى ان اشتم واحدا من الجمهور . لا يجوز لى ان اتفوه بلفظ نابى واحد .. حتى ولو كان معى الحق فى ذلك ..

و .. ..

انسحبت من المسرح فى تلك الليلة .. اجر دموعى ! ..

⊙✥⊙

والواقع ان هذا النوع من الجمهور لم يكن يقتصر وجوده على القاهرة . كان هذا النوع موجـودا فى كل مكان . معنى ذلك أن مقاومة تيار الاغانى الخليعة أمر سهل ، ولا حتى أمر ممكن دائما وربما كان جزءا كبيرا من المجهود الذى بذلته فى البداية .. موجها لمقاومة اغراء الهبوط الى المستوى السائد من الاغانى الخليعة ..

وفى البداية لم يكن يمر شهر ـ ولا حتى أسبوع ـ الا تواجهنى مشكلة بسبب عدم غنائى لهذا النوع من الاغانى .



من افلام ام كلثوم

بل ان تصميمى هذا كاد يكلفنى حياتى فى احدى المرات !

كنت اغنى فى احدى القرى ..

وبالتحديد كانت قرية تقع بجوار بلدة ميت العامل فى مركز اجا بمحافظة الدقهلية .

مكان الغناء هو دوار العمدة . دوار واسع . الجمهور يملأ الدوار . من هذا الجمهور وجوه اعرفها من قبل . فلقد كانت المرات العديدة التى غنيت فيها من قبل قد بدات تشجع هذا اللون من الغناء الذى كنت اقدمه ، ولكن الى جانب جمهورنا هذا كان يوجد النوع الآخر من الجمهور . النوع المألوف .. الذى جاء ليشرب الخمر ويستمع الى اغانى « بعد العشا .. يحلي الهزار والفرفشة » ! كان هذا الجمهور يمثل اقلية بسيطة جدا فى الريف .. ولكنه كان موجودا على اى حال ..

فى تلك الليلة بدات اغنى قصيدة « سبحان من ارسله رحمة .. لكل من يسمع او يبصر » ..

دقيقة واخرى ..

ثم وقف واحد من الجمهور يصيح : ايه الغم ده .. عايزين نفرفش ! ..

واستمررت فى الغناء ! ..

ولكن نفس الشخص عاد ليقف من جديد : عايزين نفرفش .. عايزين شوية مياعة .. شوية مواويل .. غنى لنا ياليل ياعين !

ولم التفت اليه . مازلت مستمرة فى الغناء ..

ولكنه استمر فى مقاطعته لى ..

وعندما حاول عدد آخر من الجمهور ان يسكتوه تكهرب الموقف !

لقد وقف الرجل المخمور وسط الدوار واخرج من جيبه مسدسا ولوح به فى الهواء مهددا ! ..

قال الرجل مهددا الجمهور بالمسدس : اللى مش عاجبه يطلع بره ! ..

وفى لحظات كان الصمت يخيم على المكان كله . صمت له رنين !

ونظرت الى الدوار الواسع فوجدته قد اصبح خاويا .. لااحد على الكراسى ! الجمهور الذى كان يتزاحم منذ لحظة .. ذاب !

ويبدو ان هذا الرجل كان صاحب سطوة فى القرية دون ان ندرى .. لقد اكتشفنا فيما بعد انه ابن العمدة! واحد من اصحاب النفوذ فى اى قرية ! ..

المهم ـ صمم ابن العمدة بمسدسه على ان اغنى له ما يريد ..

وصممت على الا اغنى سوى ما اريد ..

وتوزعت نظرات ابى بين وجه ابن العمدة .. وبين مسدسه .. وبينى ! ..

قال له ابى : معلهش يا ابنى .. هدى نفسك ! ..

ورد ابن العمدة : لازم تغنى ياليل ياعين . لازم تعمل لنا شوية انبساط وفرفشة ! ..

فقال له ابى : فرفشة ايه ياابنى بس وانت شايلنا المسدس !

ـ هو كده ! ..

قال ابى : حاضر يا ابنى .. حتغنى .. حتغنى كل اللى انت عايزه ، بس هدى نفسك .. غنى له يابنتى .. امرنا لله !

وصممت على الا اغنى ! ..

لم يكن تصميمى عن شجاعة .. فالمسدس على بعد متر منى .

ولكن تصميمى كان عن عناد .. وعن ايمان ..

وبدأ المسدس يتململ فى يد الرجل وهو يقول بكلمات تلاعبت بها الخمر : يعنى ما بتغنيش ؟!

ورد ابى بسرعة : حتغنى يا ابنى .. اصـــبر عليها بس .. صبرك بالله ! ..

و .. ..

انقذتنا عناية الله ..

ففى تلك اللحظة دخل الى الدوار واحد نعرفه . صاحب عزبة مجاورة للقرية .. جاء فى هذه الليلة ليسمعنى بالصدفة .. عندما علم فى طريق عودته اننى اغنى هذه الليلة فى تلك القرية .

ولم يحس ابن العمدة المخمور بالرجل .. الا بعد ان خطف منه المسدس واوسعه ضربا ! ..

⊙✣⊙

واعود الى القاهرة ..

ان الجمهور المخمور كان اقلية فى الريف . ولكنه كان اغلبية يحسب لها الف حساب فى القاهرة . والمسألة كالحلقة المفرغة.. لا تدرى من اين بدات ، هل العيب فى مستوى الاغانى .. ام فى انتشار نوع معين من الجمهور .

وعلى اى حال فلقد كان الدرس الذى خرجت به مبكرا هو الا اياس ، هو ان اصمم على نشر اللون الذى كنت اغنيه ؛ ولم يكن يدفعنى هذا الى التعصب لما اغنيه .. وانما تطوير ما اغنيه بحيث يكون مقبولا ، وبشرط الا اضحى بالمستوى الذى اؤمن به فى الغناء ..

شيئا فشيئا بدا حظى يتحول ..

فى الواقع ان رصيدى السابق من الشقاء والتعب فى الريف بدأ يصبح ميزة كبرى انفرد بها ، فحتى تلك الفترة لم اكن قد اصبحت معروفة بشكل حاسم فى مدينة القاهرة . كان رصيدى كله فى الريف . لقد غنيت فى مئات من القرى والكفور والنجوع والمدن الصغيرة ، بحيث أصبح الجمهور الذى يعرفنى جمهورا آخر ، غير الذى تعرفه ليالى القاهرة ..

⊙✣⊙

ان هذه الظاهرة سببت الحيرة لشركات تسجيل الاسطوانات.

ان اول اسطوانة سجلتها كانت اغنية « مالى فتنت بلحظك الفتاك » . اغنية لحنها لى أحمد صبرى النجريدى .. وسجلتها شركة اسطوانات « صوت سيده » بالقاهرة . ان الشركة سجلت لى هذه الاسطوانة وهى تقدر مقدما انها صفقة خاسرة . لهذا لم اتقاض من الشركة اكثر من ثمانية جنيهات .. هى كل مستحقاتى عن حقوق تسجيل الاسطوانة .



انور وجـدى .. الذى اشترك مع ام كلثوم فى بطولة فيلم « فاطمة » .

ثم فوجئت الشركة بانها حققت فى الاسطوانة ارباحا ضخمة .. مع ان ثمن الاسطوانه كان عشرة قروش !

كيف حدث ذلك ؟ اننى لم اكن معروفة بعد لجمهور القاهرة .. فمن هو الجمهور الذى اشترى تلك الاسطوانة ؟

كانت المسالة ببساطة هى اننى اتميز عن مطربات القاهرة بالجمهور الذى يعرفنى فى الريف . وعندما يأتى واحد من هذا الجمهور الى القاهرة فمن الطبيعى انه سيشترى اسطوانة للمطربة التى سمعها ورآها .. وانه لم تكن هناك اذاعة بعد ، ولم تكن مطربات القاهرة المشهورات فى ذلك الوقت يذهبن الى الريف . لم يكن الاعجاب بصوتى اذن هو سبب رواج الاسطوانة ، ولكنه كان مجرد حب الاستطلاع ..

⊙❖⊙

وشيئا فشيئا بدا رصيدى يزداد من جمهور القاهرة .. وبدات شركات الاسطوانات تضاعف اجرى من كل اسطوانة .. ولكن المسالة لم تكن ابدا بمثل السهولة التى اكتب بها الان . كانت هناك منافسة ، وهى منافسة حادة غالبا .. ولم اكن اعرف بعد احدا من كتاب صحف القاهرة . ومع ذلك فان مواقف الصحف والمجلات فى هذه المنافسة كان يختلف ..

اذكر انه فى مايو سنة ١٩٢٦ نشرت احدى المجلات تعليقا يقول : « للسيدة منيرة المهدية انصار ، وللآنسة ام كلثوم انصار .. وكل من الطرفين يدعى ان صاحبته هى ذات الصوت الاجمل . ولكن ، من هو الحكم الذى يحكم بالاولوية لهـذه او تلك ؟ هو الجمهور ولاشك .. والآن اسمع .. تدفع شركة بيضافون للسيدة منيرة المهدية اربعين جنيها مقابل كل اسطوانة تملأها السيدة .. وتدفع شركة اسطوانات «صوت سيده» للآنسة ام كلثوم خمسين جنيها مقابل كل اسطوانة تملأها الآنسة ! .. ومعنى هـذا ان اقبال الجمهور على شراء اسطوانات ام كلثوم اشد من اقباله على شراء اسطوانات السيدة منيرة .. ولهذا نجد اسطوانات الآنسة اغلى ثمنا من اسطوانات السيدة » ..

انتهت كلمات المجلة .. انها بلا شك تعطى صورة عن تلك الفترة من سنة ١٩٢٦ .

ولكن ..

لم يمض أسبوع واحد آخر الا وحدث تصرف غريب .. من نفس المجلة !

⊙❖⊙

ان المنافسة الغنائية فى سنة ١٩٢٦ كانت قد تبلورت بحيث تركزت فى النهاية بين منيرة المهدية وفتحية احمد .. وبينى

وقد ارادت المجلة المذكورة ـ هكذا قالت ـ أن تصل الى راى قاطع فى هذه المنافسة . قالت المجلة : «ثارت فى الايام الاخيرة ضجة حول الغناء والمطربات .. ايهن اجمل صوتا وايهن اعمق فنا واعذب نغمة واسمى روحا وادق تصويرا الخ. فكتب كاتب فى (البلاغ) فى هذا الموضوع ، وقام ثان فى (الاهرام) وثالث فى (السياسة) .. وكان مدار كل هذه المقالات هو السيدة فتحية احمد والمقارنة بينها وبين الآنسة امكلثوم والخروج من هذه المقارنة بتفضيل الاولى على الثانية .. وتعرض البعض للسيدة منيرة المهدية ولم يحترم درجة الامتياز التى نالتها فى مباراة الغناء المسرحى اجرتها وزارة الاشغال) فقام ووضعها هى ايضا على الشرحة . اما سوى هؤلاء مثل السيدات نعيمة المصرية وتوحيدة وفاطمة سرى وفاطمة قدرى فلم يعرض لهن احد بكلمة . ولهذا رأينا أن نقوم باستفتاء حضرات القراء ، وأن نقصر الاستفتاء على هؤلاء المطربات الثلاث اللاتى يدور حولهن الاخذ والرد ، وهن السيدات ام كلثوم وفتحية أحمد ومنيرة المهدية ..

« وموضوع الاستفتاء هو

« اولا : من هى الاجمل صوتا بين هؤلاء المطربات الثلاث

« ثانيا : من هى التى يؤثر فيك صوتها اكثر من سواها ؟ و (ويؤثر فيك) معناها هنا (يشجيك) ..

« ثالثا : من هى الاكثر الماما بفن الغناء

« رابعا : اذا فرضنا ان هؤلاء المطربات الثلاث كن يغنين فى ليلة واحدة فى اماكن مختلفة فأيهن تفضل أن تذهب لسماعها » .

هذا مانشرته المجلة ..

وفى الاسبوع التالى مباشرة قامت بنشر النتيجة ..

كانت النتيجة ـ كما نشرتها المجلة ـ هي ان ترتيب المطربات هو :

اولا فتحية احمد ..

ثانيا منيرة المهدية ..

ثالثا ام كلثوم !

ومهما كانت الدوافع وقتها وراء اخراج النتيجة بهذا الشكل ، الا انني فى الواقع صـدمت من سيطرة الصداقات الشخصية على الصحفيين المتصلين بالوسط الفني .

لم اكن اختلط باحد الكتاب او الصحفيين . لم اكن اهتم الا بتطوير صوتي وغنائي . مازال هذا رايي الى اليوم . برغم الصعوبات التي خلقها هذا الاسلوب امامي ..

ولكن المهم انني اعتبرت ان النتيجة التي نشرتها المجلة صحيحة .. فلتعتبرني المجلة مطربة من الدرجة الثالثة .. لا يهم . ولكن المهم هو الا ابقى فى الدرجة الثالثة !

ان مثل هذه الاشياء كان من الممكن ان تكون بالنسبة لي حافزا على اليأس ، بحيث اعود الى الريف من جديد .

وكان من الممكن ان تكون حافزا لي على بذل مزيد من الجهود ، بحيث ابقى واستمر واعمل ..

وهـذا ماحدث ..

اصبحت اعتبر ان المشاكل ليست صعوبات .. وانما هي تحديات .. المشاكل ليست اعذارا عن الكسل .. وانما هي مبررات للعمل .. وفعـلا .

لم يمض وقت طويل قبل ان اقرا اول مقال امين عني كتبه صاحبه قبل ان يراني ..

لقـد نشر المقال وقتها فى جـريدة (السياسة) .. وكان كاتبه الشيخ مصطفى عبد الرازق .

هذا هو اول مقال صحفي اعتز به فى حياتي الفنية . ومازلت حتى اليوم اشعر نحوه بوفاء بالغ .

ولم تمض فترة اخرى حتى كنت قد بدأت فعلا التقى بحظى ..

لقد بدا حظى يتحول مع اغنية « ان كنت اسامح وانسى الاسية »

هذه الاغنية اشترى الجمهور منها نصف مليون اسطوانة !

ولكن سعادتى بدات تتضاعف بعد ذلك بعدة سنوات عندما كنت بالاسكندرية جالسة فى كازينو بالشاطبى .. امام الكازينو كباريه ..

فى هذا المساء لم اصدق اذنى ! لقد سمعت مطربة تغنى فى الكباريه قصيدة ابا الزهراء !

ليلتها .. لم انم حتى الصباح !

لم انم من فرط سعادتى . لقد أصبح الجمهور مقتنعا بسماع « ابا الزهـــراء قد جاوزت قدرى » .. حتى فى كبـــاريه ! تطور لا يمكن تقديره فى رايى بأى مبلغ من المال ! ..



« اضطررت الى الغنا، اربع ساعات .. دون ان يسمعنى احد غير مائتى كرسى .. كراسى لا يجلس عليها فرد واحد .. كراسى سمعتنى فى صمت بليغ!»

(أم كلثوم)

من مذكرات أم كلثوم

أمي.. وأبي.. والشيخ أبو العلاء!

كانت امى سيدة بسيطة جدا !

لم تكن تعرف القراءة او الكتابة .. لم تكن متعلمة . . ولكنها كانت مثالا للسيدة التى تعرف كيف تقوم بواجبها نحو زوجها ونحو أولادها ..

لهذا لم يتزوج ابى غيرها !

ولم تكن هذه عادة مالوفة فى الريف ، ولا حتى فى اسرتى نفسها .. كان لى ثلاثة اعمام تزوج كل منهم مرتين أو ثلاثا ..

ولكن ابى كان يقدر فى امى حكمتها وبساطتها وتفانيها فى تربيتنا .

لقد تعلمت منها التواضع .

وتعلمت منها الصدق .

وتعلمت منها الايمان بالله .

كنا نستيقظ فى الفجر على صوتها ـ مع ابى ـ هى تؤدى الصلاة .

ولم نرها فى مرة تختلف مع ابى بصوت مسموع .

ولم نسمعها تناديه بغير « ياشيخ ابراهيم »

وكانت امى تساعد ابى بكل ماتستطيع . بل ان ابى عجز مرة عن ان يجد نقودا تكفى لشراء « كيلة ذرة » .. مشكلة .. ولكن امى نهضت لتجمع كل مصاغها وتعطيه لابى حتى يشترى لنا الذرة فنجد ما ناكله .. و ـ يادوب .. كان ثمن المصاغ يكفى لشراء كيلة الذرة !

لم تكن امى تهتم بالنقود .. حتى عندما بدانا نستقر فى القاهرة وندخر جزءا من دخلى .. كانت تقول : ان النقود تفسد !

وفى كل مرة كنت اسافر فيها مع ابى للغناء كانت تكرر له نفس

المحاضرة » .. والنبى ياشيخ ابراهيم تاخد بالك من الست .. اوعى حد يقول لك هاتها نسلم عليها فى البيت ونوافق . أوعى تسيبها لوحدها . خلى عينك عليها . اولاد الحرام كتير » !

وعندما بدأنا نستقر فى القاهرة لم تكن تنام الا بعد عودتى من الغناء فى الفجر ..

⊙❖⊙

وأمى كانت بسيطة فى فهمها لوسائل التربية كنا صغارا اشقياء ـ انا واختى واخى ـ بحيث لا يمر يوم دون أن نلعب بأدوات المنزل فنكسر بعضها أحيانا ..

ولكن امى كانت تقول لنا : « .. اللى يكسر حاجة وييجى يقول لى ياخد السبعة » !

ان « السبعة » هى سبع كراملات !

وكانت تقول لنا : « اللى يسرق حاجة .. ربنا يسخط وشه بخلية وش حمار » !

⊙❖⊙

.. ولكنى فى مرة حاولت ان اسرق امى !

لم تكن هى فى المنزل . منزلنا المتواضع بقرية « طماى الزهايرة » فى مركز السنبلاوين . ثم مر فى القرية رجل يبيع غزل البنات .

وتسابق اطفال القرية الى الرجل لشراء غزل البنات .

وزاغت عينى .. اريد غزل البنات !

ودخلت الى المنزل .. ومددت يدى الى جيب احد اثواب امى ، فوجدت فيه نصف فرنك .

أخذت نصف الفرنك ، وخرجت اجرى الى بائع غزل البنات .

.. ثم توقفت عن الجرى فجاة ..

تحسست وجهى .. تذكرت ان الله سيحول وجهى الى وجه حمار كما كانت امى تقول لنا !

وعدت الى المنزل ، ثم اعدت النصف فرنك الى مكانه .. وخرجت من جديد اتفرج على الاطفال وهم يشترون غزل البنات ..

ولكن منظر غزل البنات أغرانى من جديد بأعادة المحاولة .. فعدت الى المنزل .. لاجد امى قد عادت من الخارج ..

فى هذه اللحظة لم اتنبه الا وانا اعترف لها بكل مافعلت !

أستمعت امى الى اعترافى بارتياح كبير وهى تقول : الحمد لله .

قالتها كما لو كانت قد انقذت وجهى فعلا من التحول الى وجه حمار .. !

ثم اعطتنى هى النصف فرنك لاشترى منه غزل البنات !

⊙❖⊙

وكانت امى تحب شهر رمضان جدا .. وطوال الشهر لم نكن نسمع سوى آيات القرآن والاحاديث النبوية ..

وعندما اصبح لنا منزلنا الخاص فى القاهرة كانت ترفض أن تقوم « الشغالات » بخدمتنا ونحن على مائدة الافطار .. كانت تصر على ان نجلس جميعا ـ جميع فى المنزل ـ لتناول الافطار معا ..

وكانت تربى أولاد اختى بنفس الطريقة .

لم تكن توافق على خروجهم لاستذكار دروسهم بعيدا عن البيت ، وطوال مذاكرتهم كانت تصر على ان تظل ساهرة لخدمتهم .

وكانت ترفض ان تغتاب أحدا ، أو تتكلم عن أحد بسوء .

فى الواقع انها كانت سيدة عظيمة .

فبفضلها هى تحولت طفولتنا من ايام شقية الى أيام سعيدة . من أيام فقيرة الى ايام غنية

ان طفولتى لم تختلف عن طفولة الكثيرين من ابناء بلدى . أن الطفولة قد تقترن فى اذهان الكثيرين باللعب ، بالحنان ، بالمرح ، بالعروسة الحلاوة ، بالجنيه العيدية .

ولكننى عندما اتذكر طفولتى تقفز الى ذهنى اشياء كثيرة : البرد المطر ، الفقر ، الطرحة السوداء ، الشاى التقيل ، الجبن القريش ، الثروة التى كانت قرشا ، العظام التى كانت لحما ، الركوبة التى كانت حمارا ، الحنان الذى كان ابى ، الرحمة التى كانت أمى .

اتذكر ابى ـ رحمه الله ـ حينما كان يواجه مشكلته الوحيدة كل



من افلام ام كلثوم ٠٠ مع احمد عـلام

شهر : كيف يوفق بين مرتبه الشهرى ـ الذى كان مجرد عشرين قرشا كما قلت من قبل ـ وبين اعباء اسرة كاملة أصغرها أخى خالد وأنا . وعندما ادخلنى ابى الكتاب ، كانت المشكلة هى من اين ياتى بالقرش الصاغ الذى كان يجب ان يدفعه كل اسبوع لفقى الكتاب .

اتذكر هذا كله عندما اتذكر طفولتى . اتذكر اياما فقيرة بسعادة، شقية بفخر .

فمع تقدم سنوات طفولتى تركزت حياتى فى ثلاثة اشياء .

لقد كانت الاسئلة الثلاثة التى تشغلنى فى كل لحظة من تلك الايام هى :

اولا ـ هل اجد طعاما ؟

ثانيا ـ هل اجد مأوى ؟

ثالثا ـ هل .. اغنى ؟

فى تلك الايام ، كان كل شىء فى حياتى يدور حول تلك الاسئلة الثلاثة . حياتى نفسها كانت حصيلة لتلك الاسئلة الثلاثة . عندما كنت اعمل ، آكل ، انام ، اقرأ ، اسير ، اركب ، اشترى ، اسافر ، اسمع ، اتعلم .. فان هذا كله كان يتم بهدف واحد : أن اغنى بطريقة افضل . ان افهم فى وقت اقل . ان انقل عواطفى لمستمعى بشكل ارق ..

كانت هذه هى حياتى .. منذ اليوم الذى بدات اتعلم فيه الغناء وعمرى خمس سنوات ، الى اليوم الذى بدات فيه التقى باعجاب الجمهور

على اننى وراء كل نجاح حققته ، كنت اتذكر دائما شخصا واحدا هو صاحب الفضل فيه .

هذا الشخص هو : ابى !

كان ابى رجلا فقير الثقافة .. معدم الثروة . ولكنه اعطانى اكبر ثروة . أعطانى حنانه . اعطانى اهتمامه . أعطانى اصراره على أن انجح .. وان أتعب قبل ان انجح .

ان ابى علمنى درسا هاما . علمنى ان النجاح ـ وليس ثمن النجاح ـ هو المهم .

ولقد تعلمت من ابى اشياء كثيرة .. غير مجرد الغناء !

كان ابى يتمسك دائما بان يؤدى واجبه . فى الواقع ان ضميره كان فى حالة صحوة مستمرة . وبسبب يقظة ضميره هذه ، اضطررت مرة الى الغناء فى حفل عام .. بلا جمهور ! اضطررت الى الغناء اربع ساعات .. دون ان يسمعنى احد غير مائتى كرسى ؟ كراسى لايجلس عليها فرد واحد . كراسى ظلت تسمعنى لمدة اربع ساعات فى صمت بليغ !

حدث هذا فى سنواتى الغنائية المبكرة فى الريف .

لقد اتفق صاحب الفرح مع ابى على ان اذهب الى الغناء فى قريته بمركز السنبلاوين . واعطى لابى اجرى عن الغناء : خمسين قرشا

وفى الليلة المحددة ركبت الحمار سبع ساعات قبل ان اصل الى القرية .

وعندما دخلنا القرية وجدنا السرادق معدا ، والكلوبات مضاءة .. ولكن بلا جمهور !

لم يكن هناك شخص واحد .. ولا ـ حتى ـ صاحب الفرح !

لقد تصادف ان الجو فى تلك الليلة كان فى منتهى البرد . ليلة من ليالى شهر امشير ! . وفضل الناس الا يغادروا بيوتهم . « .. حيسمعوا مين يعنى ؟! صالح عبا الحى .. والا عبد اللطيف البنا » ؟ لا

وذهب ابى الى صاحب الفرح ليعيد اليه الخمسين قرشا .. .. ولكن صاحب الفرح رفض . قال لابى « .. يا سيدى كأنها زكاة » ! قالها وانصرف !

واسقط فى يدى ..

ماذا افعل ؟!

وكان رد ابى : لازم تغنى !

ـ اغنى لمين ؟!

ـ مش مهم لازم نخلص ضميرنا !

ـ صح .. ولكن معيش ناس .. مفيش ولا حتى واحد اغنى له



موريس شيفالييه .. عندما زار ام كلثوم فى منزلها ..

ـ برضه مش مهم .. لازم نغنى ونؤدى واجبنا !

.. وفعلا !

وقفت اغنى فى هذا الحفل .. دون ان يسمعنى احد !

ولكنها كانت ليلة ممتعة ! انها الليلة الوحيدة التى غنيت فيها بالريف دون ان تقاطع الخناقات غناءنا !

فبدلا من ان يكون محصول الليلة ثلاث ساعات خناق ونصف ساعة غناء ـ كما كانت العادة ـ اصبحت الليلة غناء فقط .. ولكن بلا جمهور ! !

⊙❖⊙

وكان ابى بسيطا فى حرصه على اعطائى مظهر المطربة الكبيرة .. وانا غير مشهورة بعد !

فبعد سنوات من مطلع حياتى الغنائية .. استطعنا ان نستبدل بركوب الحمير ركوب القطارات فى سفرنا للغناء بالقرى والمدن الصغيرة .

ولكننا كنا ما نزال نركب بالدرجة الثالثة فى القطار .



ام كلثوم بين الدكتور طـه حسين ومحمد القصبجى .. فى حفل خاص اقيم لتكريمها

وقبل ان يصل القطار الى البلدة التى سنغنى فيها بدقائق ، كان ابى يصر على ان نغادر مكاننا فى الدرجة الثالثة .. وننزل الى المحطة من باب الدرجة الاولى .. حتى لا يرانا اصحاب الفرح خارجين من باب الدرجة الثالثة ، فيتصوروا اننى مطربة صغيرة !

⊙❖⊙

وعندما جئنا الى القاهرة اول مرة اصر على ان نسكن فى فندق جوردون هاوس بشارع فؤاد . فنـــدق غال . ويصر على ان يأتى لنا الطعام جاهزا من محل « سان جيمس » .. الذى كان من اغلى محلات القاهرة .

فى الواقع ان ابى كانت تدفعه فكرة رئيسية .. وهى الحرص على اعطائى كل مظاهر النجاح وكان فى ســبيل ذلك ينفق كل دخلنــا ..

فعندما كنا نسافر الى الاسكندرية للغناء ـ بعد سنوات طويلة من عملى ـ كان اكبر مبلغ اتقاضاه فى ذلك الوقت هــو خمسة عشر جنيها .

وفى اليوم السابق على السفر كان ابى يأخـــذنى الى محلات «هانو» بالاسكندرية لكى اشترى، فساتين جديدة بكل الخمسةعشر جنيها .. ثم يدفع بعد ذلك أجر السفر الى الاسكندرية من جيبه !

وعندما انتقلنا من السكن فى شارع قوله بحى عابدين فى القاهرة .. اصر على ان نسكن فى شقة فاخرة بعمارة بهلر فى حى الزمالك . شقة تضم سبع حجرات وثلاثة حمامات ، ثم طباخ لاعداد الطعام. شقة غالية ايجارهاخمسة وعشرون جنيها ، وهو مبلغ مرتفعجدافى ذلك الوقت ، ويمثل عبئا ماليا باهظا بالنسبة لنا .

⊙❖⊙

وكان والدى واسع الافق بعيد النظر رغم تعليمه المحدود الذى اقتصر على تعلم القرآن وترتيله . وبعض التدريبـــات التى كان بفطرته يصر على ان اقوم بها .. تبينت فيما بعـــد انها تطبق فى مدارس الكونسرفاتوار الحديثة .

فمثـــلا ..

كان ابى يصر على ان اتناول اطعمة معينة ومشروبات معينة .. منها مثلا مشروب عبارة عن خليـــط من البيض النيىء وســـكر النبات واللبن الساخن .

وكان يصر على ان انام مبكرا ، واستيقظ مبكرا .. فى الايام التى لا يكون عندى فيها غناء .

وكان يصر على ان امارس يوميا بعض الالعاب الرياضية اللازمة لتوسيع الصدر واطالة الانفاس . لقد احضر لى مثـــلا « صاندو » بسلك واحد فى الســـنة الاولى ثم سلكين فى السنة الثـــانية ثم ثلاثة .. وهكذا .

ولذلك فان كتفى الان اعرض من المقاس العـــادى لجسمى ..

وكان ابى لا يألو جهدا فى تعليمى ..

فبمجرد ان بدانا نستقر فى القاهرة ، وبدانا نقيم فى شارع قولة بحى عابدين احضر لى ابى الاســـتاذ محمـــود رحمى لكى يعلمنى العزف على العود . كان رحمى من احسن المتخصصين فى العـــزف على العود. وكان ابى يطلب منه ايضا ان يدربنى على غناء اكبر عدد

ممكن من التواشيح .. لا لكى اغنيها ، بل لكى تكون ارشيفا غنائيا احتفظ به فى عقلى .

وكان محمود رحمى يظل يدربنى طوال النهار فى حضور ابى ، وكان ابى يدفع له ثلاثة جنيهات كل شهر ، وهو مبلغ مرتفع بمقاييس تلك الايام .

وكنت حتى تلك الفترة ما ازال اغنى وانا ارتدى العقال !
وكان ابى هو صاحب فكرة ارتدائى العقال عندما بدات اغنى فى الريف .

كان يرى اولا ان العقال زى جاد يناسب ما كنت اغنيه من القصائد والمدائح النبوية .

ويرى ثانيا ان منظر فتاة تغنى ليس منظرا مالوفا فى الريف . فالعقال والبالطو الاصفر هما حل وسط فى رايه .

ولكن هذه الاسباب لم تعد ضرورية عندما بدات استقر فى القاهرة ، لان منظر فتاة تغنى كان شيئا مالوفا فى القاهرة .

وابى كان اول من تحمس عندما فكرت فى التخلى عن الغناء مع التخت القديم واستبداله بالغناء على الالات الموسيقية . فحتى سنة ١٩٢٦ ، لم تكن هناك موسيقى تصاحبنى فى الغناء . كان يقف معى على المسرح اربعة فقط فى زى المشايخ ، منهم ابى واخى خالد

وكانت هذه الطريقة لها معجبوها الذين يتزايدون كل يوم .
.. ولكنى كنت اريد ان اتطور .

والاهم من ذلك اننى اريد ان اتطور بارادتى ، قبل ان اكون مرغمة على التطور .

وقلت لابى اننى افكر فى الغناء على الآلات الموسيقية .

وتحمس ابى ولكنه اصر على نقطة هامة . قال انه لا يريد ان تكون المسألة تطورا والسلام . وانما يجب ان يكون هذا التطور قويا .. لا يريد أن يصاحبنى «تخت» موسيقى والسلام .. وانما يجب الا يكون هذا التخت مماثلا لتخت العوالم !

.. وفعلا ، دفع ابى اكبر ما يمكنه لكى يحقق فكرته .

لقد بدات اغنى بمصاحبة اوركسترا لاول مرة فى مساء الخميس

٧ اكتوبر سنة ١٩٢٦ . وكانت اول اوركسترا موسيقية اتفق معها ابى تضم الاساتذة محمد العقاد ، وهو من امهر عازفى القانون وقتها ، والاستاذ سامى الشوا على الكمان ، والاستاذ محمد القصبجى على العود .

وفى اول ليلة غنيت فيها مع الاوركسترا نجحت التجربة نجاحا هائلا . ودفع لى صديق افندى متعهد الليالى خمسين جنيها عن الليلة الاولى فقط ، ثم وقع معى عقدا بدفع خمسة وثلاثين جنيها عن الليلة بعد ذلك .

وكان ابى يدفع الكثير لتنفيذ اصراره على الاستعانة بأحسن الموسيقيين .

كان يدفع لمحمد العقاد ثلاثة جنيهات ونصف جنيه عن الليلة الواحدة . ولسامى الشواجنيهين ونصف جنيه ، ولمحمدالقصبجى جنيهان . فى الواقع ان الصحف اجمعت وقتها على تسمية هؤلاء الثلاثة بـ « اساطين الموسيقى الشرقية »

فى الواقع ان هذه ـ وغيرها كثير ـ كنت تؤكد حقيقة كبيرة كنت المسها من ابى ، وهى اصراره الدائم على ان انجح دائما .. مهما تحملنا من تكاليف . اصراره على ان التطور لا يكفى ان يكون مجرد تطور .. بل من الضرورى ان يكون تطورا الى الاحسن والا فلا داعى له !

⊙❖⊙

.. ولكنى مع هذا كنت اختلف مع ابى فى بعض الاحيان !

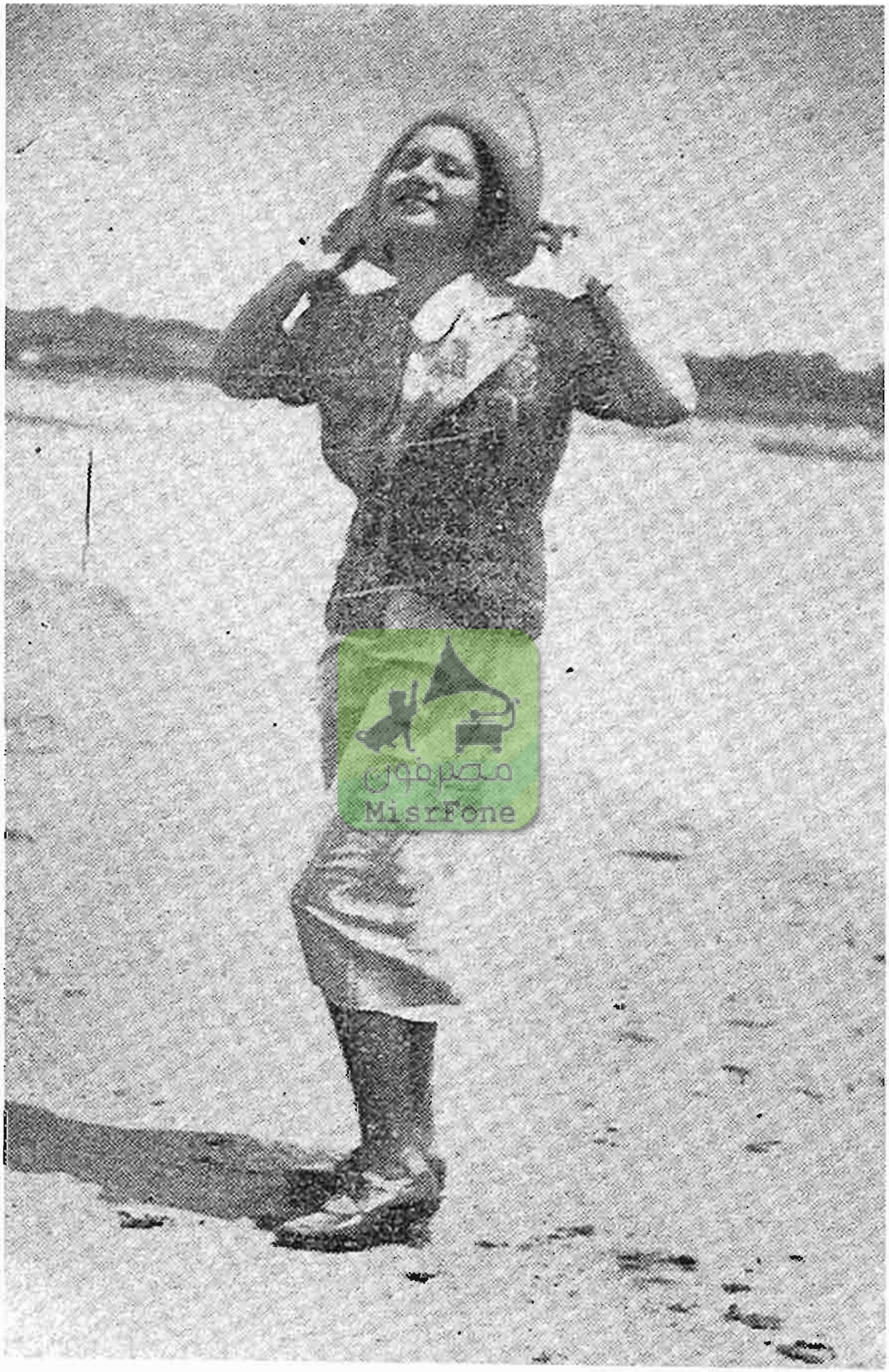
لقد عارضت ابى مرة واحدة . عارضته بشدة . ولكنها كانت المرة الوحيدة التى صفعنى فيها صفعة ساخنة !..

ذهبنا الى البنك العقارى ..

كان البنك يبيع ارضا بالمزاد العلنى وفاء لدين متعلق بهذه الارض . مساحة الارض تزيد على مائتى فدان .

وفى المزاد قام محام من المنصورة بشراء مائة وثمانية أفدنة من الارض المعروضة للبيع

واراد ابى ان يشترى خمسين فدانا من هذا المحامى .



فى راس البر .. صـــورة التقطت لام كلثوم على الشاطىء الذى اعتـــادت لسنوات طويلة ان تستجم عنده ..

ولكن الارض كانت محملة بديون كثيرة ، وهى ديون تعطى الدائن حق تتبع الارض فى يد اى مالك لها .

لهذا رجوت ابى الا يشترى الخمسين فدانا الا بعد ان يسدد المحامى كل الديون المتعلقة بها ، لان الارض هى التى تضمن الوفاء بديونها ..

ولم يتمسك ابى بالشرط الذى طلبته منه .

ولكننى صممت على كتابة هذا الشرط فى العقد .

كانت حجتى بسيطة .

ان ابى شرب نفس المقلب مرتين من قبل .

فى مرة اشترى ارضا باسمى دون ان يشترط وفاء المالك الاصلى بالديون المتعلقة بالارض . لقد اكتفى بكلمة شرف من المالك .

ان المالك وعد ابى بانه سيدفع الديون خلال عدة اشهر . واعتبر ابى ان هذه الكلمة كافية ، ثم طلب منى توقيع العقد ، فوقعت . وقبل ان تمر شهور قليلة ، فوجئنا بالحجز على الارض وفاء للديون التى لم يسددها المالك الاول وخسرنا الارض ... والمال الذى دفعناه ثمنا للارض .

⊙❖⊙

وتكررت هذه الحكاية مرة ثانية !

لذلك ، فعندما اراد ابى ــ للمرة الثالثة ــ ان يشترى ارضا ، صممت فى هذه المرة على اننى لن أوقع العقد الا اذا نص على مسئولية المالك الاصلى فى الوفاء بالديون .

ان الارض التى ضاعت منا مرتين من قبل كانت اقل من عشرة فدادين

ولكن الارض التى نشتريها هذه المرة هى خمسين فدانا . والاهم من ذلك اننى اشفقت من ان يضيع ما ادخرناه فى عشر سنوات مرة اخرى فى غمضة عين .

ان الثمن الذى كنا سندفعه فى المرة الثالثة هذه ، كان حصيلة عملى وعمل ابى طوال عشر سنوات كاملة حتى سنة ١٩٣٥ ..

حصيلة كفاح شاق وطويل استمر طوال السنوات المبكرة من عملى الفنى . سنوات اعتز بها . وبعد هذا المبلغ كان على ان انتظر عشر سنوات اخرى على الاقل حتى ادخر مبلغا آخر من جديد .
المهم ..

استمرت المناقشة تجرى بين ابى وبينى فى البنك العقارى .. وفى حضور عدد من الناس ، من بينهم مالك الارض الذى يعمل محاميـا فى المنصورة .

ولكن واحدا من الحاضرين مع المـالك اثار اعصـــاب ابى على بدرجة كبيرة .

ولم اتنبه الا وهو يصفعنى بقسوة .

ولم ابك هذه المرة . لقد تغلب عنادى على عواطفى .

وقلت لابى : اما الان .. اما بعد هذه الصفعة .. فاننى لن اوقع العقد ابدا الا اذا نص على هذا الشرط ! الان .. لن اقبل كلمة شرف من المالك . لن اقبل سوى شرط مكتوب ..

.. وفعـلا ! .
اضطر المالك فى النهاية الى توقيع العقد متضمنا الشرط الذى اصررت عليه .

و .. لم يفاتحنى ابى فى هذا الموضوع الا بعدها بسنة كاملة .

قال لى : لقد كان معك الحق يوم اختلفت معى بشأن الارض . لقد ذهبت اليوم الى بنـــك مصر فاخبرنى بانه كان سيحجز على الارض وفاء لديونها القديمة .. مما اضطر المالك السابق الى ان يقوم بتســديد ديونه .. واصبحت الارض ملـكا لنـــا من تاريخ الوفاء بالديون (●)

⊙❖⊙

ان امى وابى هما صاحبا الفضل الاول على فى حياتى .

اما الثالث ، فهو الشيخ ابو العلاء .

لقد تحدثت من الشيخ ابو العلاء من قبل .

ويكفينى ان اقول انه جعلنى لاول مرة افهم معنى ما أغنيه .

(●) تبرعت ام كلثوم بكل اراضيها لافراد اسرتها .

عندما اقمت فى القاهرة لاول مرة كنت اسكن ـ مع والدى واخى خالد ـ فى فندق جوردون هاوس ، كان للفندق شرفة تطل على شارع فؤاد

وكان الشيخ ابو العلاء يظل يغنى لى فى الشرفة ، ويدربنى على الغناء ، طوال الليل . لم يكن يتوقف الا فى الصباح .. عندما يبدا الترام فى السير !

والحقيقة ان الشيخ ابو العلاء لم يحصل على ما يستحقه من الشهرة .

كان التيارالسائد وقتها هو تيار الاغانى الخليعة . ولم يكن هذا لونه . كان ابو العلاء يصر على غناء الشعر العربى الاصيل .

واحيانا كان الجمهور يعامله بقسوة !

لقد انزله الجمهور مرة من على المسرح فى كازينو البوسفور ،لكى يستمع الى عبد اللطيف البنا بدلا منه !

ولكن الشيخ ابو العلاء كان يتحمل هذه المصاعب ..ويضحك منها

وحتى عندما بدا المرض يتردد عليه لم تختف الابتسامة من وجهه .

لم تختف ابتسامته .. حتى عندما عرف حقيقة مرضه .

ولم تختف ابتسامته .. حتى عندما اصيب بالشلل .

ولكن الموت كان اكبر منه . لقد هزمه فى النهاية ، وسحب منه تلك الابتسامة التى لن انساها .

مات الشيخ ابو العلاء فى مساء الاربعاء ٥ يناير سنة ١٩٢٧ .

لقد كان الشيخ ابو العلاء والدا ثانيا لى . ولن يقل وفائى وامتنانى له ، عن وفائى لامى .. وابى ..

⊙❖⊙

عند هذا الحد انتهت مذكرات ام كلثوم . من الفصل التالى تبدا مذكرات أخرى . مذكرات «عن» ام كلثوم وليست منها ، مذكرات منى عنها ..



« .. التى كانت الارض دنياها
والســــماء حياتهـــا
والنجــــوم مستمعيهـــا »

عندما تغني أم كلثوم

أم كلثوم التي يعرفها الناس !!

مساء الخميس ..

كل شخص فى مدينة طنطا يبدو عليه خارجا من منزله .

« هذه ليلتنا الكبيرة » هكذا قال لى مدير الفندق قبل أن نغادره .

الناس بداوا يتحركون فى الشوارع . واحد هنا . واحد هناك هناك كثير من الضحكات والتحيات حولنا . رجل يتمتم لزميل له فى صوت خفيض مشيرا نحونا : « .. يا ابنى دول من مصر . دول يظهر من سميعة ام كلثوم » !

لقد ذهبت الى طنطا لاشاهد هذا الحفل كمجرد نموذج لحفلات ام كلثوم . ولكنه فى الواقع لم يكن يختلف عن اى حفل آخر لها .. الا فى المكان !..

لا تكاد تمر دقيقة من الزمن ، او مائة متر من السير ، دون أن تسمع اسم أم كلثوم على الألسن . أن مدينة طنطا بدت فى ثوب آخر وشكل آخر هذه الليلة . فرح . أن طنطا — من النظرة الاولى — قد أعدت نفسها لهذه المناسبة .

وفى هذا المساء بدأت طنطا تعبر عن عواطفها نحو ام كلثوم .. عواطف تدخرها طنطا لهذه المناسبة منذ زمن طويل مضى . هذا واضح من كل هذه الانوار . كل هذه الزينات . كل هؤلاء الناس .

مظاهر الفرح والزينة تقود كلها الى مكان واحد : الاستاد الرياضى . هذا هو اضخم مكان تملكه طنطا . لهذا اختارته المدينة مكان حفل ام كلثوم الليلة . سرادق .. فى الهواء الطلق .. مضىء .. منظم .. واسع . خمسة آلاف كرسى .



• هل راى الحب سكارى •• مثلنا • ؟

بعض الكراسى الامامية مازال خاليا . معظم الكراسى تم شغلها الضحكات تأتى من الخلف . ضحكات يقظة . الجميع يبدو عليهم انهم استعدوا مبكرا لهذه الليلة . والجميع يبدو عليهم انهم ناموا عدة ساعات بعد ظهر اليوم استعدادا للسهر مع ام كلثوم

.. الجميع ظلوا يدربون انفسهم طوال النهار على الاستماع لام كلثوم طوال الليل !.

داخل السرادق يتزايد عدد الداخلين.. ويقل حجم الضوضاء.

داخل المسرح تجلس الفرقة الموسيقية خلف الستارة المغلقة . من وراء الستار تستطيع ان تسمع ذلك الالتحام المدهش للاصوات الانسانية . حول الفرقة تتصارع باقات الورد لتحتل مكانها فوق المسرح

ومن ركن جانبى خلف الستارة تستطيع أن ترى الجمهور ياه .. كل هذا العدد ؟ !

ان ويليام ليردكتب فى القرن السادس عشر يقول «مادام الغناء طيبا بهذا الشكل فأتمنى من كل الرجال أن يتعلموه » .. معه الحق !

ولكن نصف جمهور الليلة نساء انني استطيع بصعوبة ان أسمع خلفى سيدة تقول لزميلتها التى رايتها بالصدفة : انت فين يا حبيبتى ؟ ايه الفستان الجنان ده ؟ طبعا اشتريته مخصوص علشان حفلة ام كلثوم . هىء هىء هىء ! !

⊙❖⊙

بعيدا عن المسرح ، والجمهور ، تستطيع ان ترى ام كلثوم وهى قادمة فى الطريق . لقد دخلت من الباب الخلفى للسرادق . باب سرى باب يؤدى الى غرفتها الخاصة فى المسرح

ومع ذلك فان عددا من الجمهور تسلل الى هناك فى انتظار ام كلثوم . انهم يرغبون فى مصافحة أم كلثوم ، او حتى رؤيتها امنية .

خلال لحظات كان الجمهور قد تزاحم حول ام كلثوم . اين هى ؟ لا استطيع ان اراها

وسرا لان وجيه اباظه محافظ المدينة قد تنبأ بذلك مقدما ..



ام كلثوم تستمع – تسنمع الى تعليق الجمهور ..

فقد بدا يرجو الجمهور ان يفسح الطريق . لحظة .. ولحظة .. ثم بدا الجمهـور يسـتجيب للرجاء . بدا يفك الحزام من حول ام كلثوم . وبدات ام كلثوم تخترق هذا الحصار الجماهيرى كما لو كان حزاما من الاسباجيتى !

.. ونحن فى مساء الخميس .

ان ام كلثوم تقيم حفلاتها دائما يوم الخميس. لقد اصبح لديها كومة من ايام الخميس هذه . كومة تشكل رصيدها .. ويعرفها الناس من خلالها . ان عمرها كله هو مجموع ليالى الخميس التى غنتها . حصيلة فنها كله تنفقها ليـلة الخميس . فى تلك الليـلة يقول لسانها سرا «اغنى واغنى واغنى .. واورى الخلايق فنى» . من اجل هذه الليـلة تعيش ام كلثوم . ان الموهبة هى فن تنمية الموهبة . وموهبة ام كلثوم تتركز فى ان كل شيء فى حياتها يعمل بهدف تنمية موهبتها التى تبديها فى غنائها ليلة الخميس .

⊙❖⊙

وعنـدما بدات ام كلثوم بدا صحفى اجنبى يستمع اليها من خلالى .

قال لى : لا ادرى سر هذه العلاقة بين الجمهور وبين ام كلثوم . انها لاتخترع . لاتبتكر . لا تخلق . انها ليست كاتبا ، ولا مؤلفا ، ولا ملحنا . انها مجرد سيدة تغنى . تغنى الحان الآخرين وكلمات الآخرين .

وقلت له : نعم . هى سيدة . وهى تغنى . ولكنها فنانة حينما تغنى . ساحرة عندما تكون فنـانة . قمة عندما تكون ساحرة . متواضعة حينما تكون فى القمة . انسانة حينما تكون متواضعة .

ام كلثوم هى هذا كله . راقبها مثلا وهى تغنى ..

ان ام كلثوم حينما تغنى ، فانها لا تكون مجرد مطربة تقف امام ميكروفون فوق مسرح بين جمهور داخل صالة وسط مدينة .

انها تجعل الميكروفون يتراجع والمسرح يهتز والجمهـور يقفز و ~ تسهر والبلد يرقص والفن يغنى . انها تصـنع من صوتها وعواطفها ومشاعرها شبكة ضخمة تمسك بهم ــ بمستمعيها ــ بحيث يصبح كل شيء فيهم كالآخر . كل واحد مندمج فى الآخر .



فى تونس .. بين الجماهير .. بعد ان افتتحت شارعا اطلقوا عليه اسم « نهج ام كلثوم » ..

نحن ، انت ، هم ، هى ، هو ، كل شىء يفقد شخصيته ويجد معنى جديدا وعواطف جديدة لمدة محدودة من الزمن .

ان المستمع يقبل معها على الحياة فى بداية غنائها ـ رباعيات الخيام ـ حينما تنادى « **هبوا املأوا كأس الطلى قبل ان .... تملأ كأس العمر كف القدر** » .

هكذا يطرب معها الجمهور . دعوة صريحة للاقبال على الحياة والتمسك بها . الجمهور مقتنع .

ومع ذلك ، لا تكاد تفوت ساعة ، حتى يقتنع الجمهور بشىء آخر . يقتنع بغنائها متوسلة الى الله : « **ان لم اكن اخلصت فى طاعتك ... فاننى اطمع فى رحمتك** » .

لقد رغب الجمهور فى الحياة منذ ساعة ، ثم طلب الرحمة منذ ساعة . رغب الجمهور فى الخمر منذ لحظة ، ثم استغرب ذلك بعد لحظة . استغفر الله .

ولقد كان الجمهور مقتنعا بما غنته ام كلثوم فى كل مرة . ان ام كلثوم غنت رباعيات الخيام . وهى فى غنائها جسمت نصف الجنه ، ولكنها عادت بعد قليل تحذر بنصف الجحيم . النتيجة : خرج الجمهور بأذن مع بداية القصيدة ، واذن مع نهايتها . خرج بعين فى الجنة ، وعين فى النار . بقلب يرغب . وقلب ـ هو نفسه ـ يرجو المغفرة . سبحان التواب الرحيم .

وتستطيع ان تراقب الجمهور بطريقة اخرى . الجمهور يقفز فى بداية عمر الخيام . الجمهور يصيح ، يهتف ، يصفق . وفى نهاية القصيدة فان الجمهور ما زال يصفق ، ولكن بعد أن جلس على الكراسى . انه يصفق ، انه يتحسر . انه يصفق بحسرة .

⊙❖⊙

والجمهور بالنسبة لام كلثوم هو جزء من غنائها . ان دوره رئيسى جدا .. تماما كدور الملحن والمؤلف والعازف . فغناء ام كلثوم هو احلى طرب يسمعه هذا الجمهور . وتصفيق الجمهور هو احلى اغنية تسمعها ام كلثوم . لو لم يوجد هذا الجمهور ما كانت ستوجد ام كلثوم . ولو لم توجد ام كلثوم ما كان سيوجد هذا الجمهور . فى الواقع لايمكن تصور ام كلثوم بغير هذا الجمهور ، ولا هذا الجمهور بغير ام كلثوم . الشىء وظله . الصوت وصداه .



« اللى فات من عمرى كان لك من زمان »

الشهيق والزفير . كلاهما يكمل الآخر . يفسر الآخر . جزء من الآخر .

لقد تخصص هذا الجمهور فى سماع ام كلثوم .. ولكن الحقيقة الاخرى هى ان ام كلثوم تخصصت هى ايضا فى « سماع » هذا الجمهور . ان ام كلثوم تحاول أن ترضى ذوق كل مستمع. بالطبع هى لا تفعل . لا تستطيع . لا يمكن . مستحيل . ومع ذلك فهى تحاول .

ان ام كلثوم ـ قبل ان تغنى بلحظات ـ تتطلع الى الجمهور من خلف الستار. نظرات سريعة فاحصة. مساء الخير ايها الجمهور !

كل صيحة من الجمهور لها معناها الخاص فى قاموس ام كلثوم. انها تتعامل مع جمهورها بشفرة سرية . بكلمة . بنظرة . باشارة . بهمسة .

⊙❖⊙

وعندما تبدا فى الغناء فانها تبدا فى اطلاق بالونات اختبار غنائية . آه هنا .. وآه هناك . حذف هنا .. واضافة هناك .

وللحظات قليلة فان ام كلثوم ـ بينما تغنى ـ تتبادل الادوار مع الجمهور . هو يغنى ؛ وهى تستمع! هو ـ اقصد ـ يصفق.. وهى تبتهج . هو يحيى ، وهى تتدلل . علاقة تقوم على الايقاع . ايقاع الحياة : خذ وهات . ايقاع البحر : مد وجزر . ايقاع السماء : نور وظلام. ايقاع الرقص : هى وهو. أنت فى هذا الحفل تشعر بنفس الايقاع : غناء من ام كلثوم .. وتصفيق من الجمهور. خذ وهات . خذ غناء .. وهات سعادة .

فى هذه اللحظات .. تجد ان عينى ام كلثوم واذنيها متفرغة تماما لسماع الجمهور . انه يهلل .. هى تتوقف . انه يطرب .. هى تستمع . انه يطلب التكرار .. هى تعيد . انه يلح .. هى تعيد مرة أخرى . انه يتذوق .. انه .. انه يصفق لام كلثوم .

مرة اخرى تستمع ام كلثوم الى التصفيق . انها هنا تحاول أن تصبح كالمكتشف : كل شيء أمامها له معنى ورمز . تصبح كقبطان سفينة : يستدير دائما ليكون مع الريح . تصبح كجهاز سيسموجراف : كل هزة طرب تسجلها . تصبح ككيميائى ! اذا اضفنا كذا لكذا .. تكون النتيجة استمتاع الجمهور . تصبح كالاطباء الصينيين القدامى : تعرف كيف تقيس كل نبضة قلب .



« حاضر .. حاضر .. »
تقولها ام كلثوم لجمهور المغرب الذى يطلب اعادة الاطلال ..

ان ام كلثوم بالنسبة لهذا الجمهور هى تاريخ انها تاريخ اسلوب كامل فى الموسيقى والغناء والطرب. تاريخ ينتظر ام كلثوم حتى يطوى صفحاته حتى ينصرف . فالغناء الفردى ـ بهذا الشكل .. بهذا الاسلوب بهذه الطريقة ـ والطرب الغنائى بهذه الآلات ، بهذا التكرار .. كل هذا كان من المفروض أن ينتهى منذ سنوات طويلة مضت . ولكن ام كلثوم اضافت ملحقا لهذا الفصل المنتهى فى تاريخ الموسيقى الشرقية . ام كلثوم أعادت الشباب للموسيقى الشرقية . هى نفسها دواء للشباب . جرعة اب . هى نفسها اطالت انفاس هذا النوع من الغناء بعد أن تقطعت انفاسه منذ زمن طويل

وأم كلثوم انفاسها طويلة غنائيا . طويلة .. مستمرة .. مرتفعة انها ايضا تجد ان الجمهور يطلب منها ما لا يقبله من غيرها . استثناء ان الكامات التى يقرأها الناس فى دقيقة ، ويغنيها المطربون فى عشر دقائق تغنيها ام كلثوم فى ساعتين المقطع الواحد تعيده مرة ومرة و ثمانى مرات ! فعلا ثمانى مرات ، كما حدث فى اغنية « انت عمرى » . وفى كل مرة يزيد انفعال الجمهور ولا يتناقص انفعال لا يتناقص ، ولا يتجمد ، ولكنه يتضاعف .

وهذا الجمهور ينقل انفعاله واعجابه بأم كلثوم من جيل الى جيل . وراثة . خذ مثلا ما كتبه جمال الدين حافظ عوض سنة ١٩٢٦ يقول « كانت الآنسة ام كلثوم ، وما زالت الى اليوم ، موضع اعجاب الناس من الفنانين والموسيقيين واصحاب الآذان السليمة. وكانت لاتحيى ليلة تنشد فيها الا ويمتلىء المكان ويغص بالحضور. وذاع اسمها وانتشر صيتها وتهافت الامراء والاعيان على الاستمتاع بصوتها المطرب فى حفلاتهم الخاصة » .

ولو حذفت كلمة «كانت» مما كتبه جمال الدين حافظ سنة ١٩٢٦ فسوف يظل الوصف صادقا اليوم . ما زال الجمهور هو هو ، بعد ان اصبح اكبر . ما زال الاعجاب هو هو ، ولكن اضخم . ما زال الانفعال هو هو ولكن اقوى .

استمع اليها مثلا فى اى حفل عام وهى تغنى . راقب الجمهور ايضا وكيف ينفعل .



امام المسلة المصريه في باريس - المكان الوحيد الذي اختارته ام كلثوم للتصوير امامه ..

انها تغنى : « فات الميعاد .. وبقينا بعاد » خسارة . انها خسارة عاطفية شخصية لكل واحد من المستمعين .

اذا عدت خلفها راقبها وهى تغنى « **انا لن أعود اليك .. مهما استرحمت دقات قلبى** » حرام !

او وهى تغنى « **ما بين بعدك ، وشوقى اليك .. وبين قربك ، وخوفى عليك .. دليلى احتار ، وحيرنى** » . مشكلة . مشكلة عاطفية شخصية يحس بها كل مستمع من هذا الجمهور .

واذا تقدمنا الى الامام فسنستمع اليها تغنى كلمات ابراهيم ناجى

يا فؤادى لا تسل اين الهوى كان صرحا من خيال فهوى
اسقنى واشرب على أطلاله وارو عنى طالما الدمع روى

هكذا تبدا أم كلثوم فى قصيدة الاطلال ولكنها ما تكاد تصل الى آخر خمس كلمات حتى يصبح كل شىء حولها أطلالا . اطلال غناء : أطلال حب ، اطلال جمهور ام كلثوم نفسها تصبح أحيانا اطلالا ! لقد رآها احمد رامى مرة وهى تأخذ حقنة طبية قبل الغناء لكى تساعدها على الوقوف ساعة وهى تشكو ألمها

كل شىء يصبح اطلالا ، ما عدا عواطف الجمهور نحو ام كلثوم . ان الجمهور يعجب بها كما لم يعجب بها من قبل . وهى تغنى له كما لم تغن من قبل .

⊙✣⊙

والجمهور يقبل من ام كلثوم ما لا يقبله من غيرها . فى الواقع هى تحس ان لديها توكيلا على بياض من جمهورها لكى تختار له ، وتغنى له ما تختاره ، وتغير فيما تغنيه .

الجمهور يعلم مثلا ان قصيدة ابراهيم ناجى تبدا هكذا : « يا فؤادى رحم الله الهوى » . ولكنه يغفر لأم كلثوم ان تغنيها : يا فؤادى لا تسل اين الهوى .

وفى قصيدة ريم على القاع لاحمد شوقى يقول الشاعر « فرب منتصت والقلب فى صمم » . ولكنه يغفر لام كلثوم ان تغنيها : « فرب مستمع والقلب فى صمم » .

الجمهور يغفر لها اذن ما لا يمكن غفرانه . انه جمهور استثنائى . جمهور حساس لكل كلمة من أم كلثوم . كل همسة .

كل آه . قليل من النغم طرب . قليل من الآهات متعة .

وحينما تغني ام كلثوم فكل شيء يصبح في خدمة غنائها . قدماها تتحركان ـ خطوتين الى الامام وخطوة الى الخلف . يداها تساعدانها في الغناء : برقة كما في اغنية « رق الحبيب » . بعنف كما في نشيد « فدائيون » . بكبرياء في اغنية « فات الميعاد » . بتفاؤل في اغنية « انت عمري » . بحسرة في قصيدة « الاطلال » . بابتهال في قصيدة « ولد الهدى » . بمنديل في جميع الاحوال .

ان وجهها يعبر بانفعال . يداها تحتضنان الهواء . عيناها تؤكدان المعنى . اذناها تجمعان الحصيلة .

الحصيلة هي ان كل مستمع يحس ان ام كلثوم تغني له شخصيا تغني له على انفراد .. ولكن على مسمع من الملايين .

الحصيلة انها عندما تغني فان الجمهور يحس ان الحياة هي موت بغير غناء بغير طرب بغير حب .

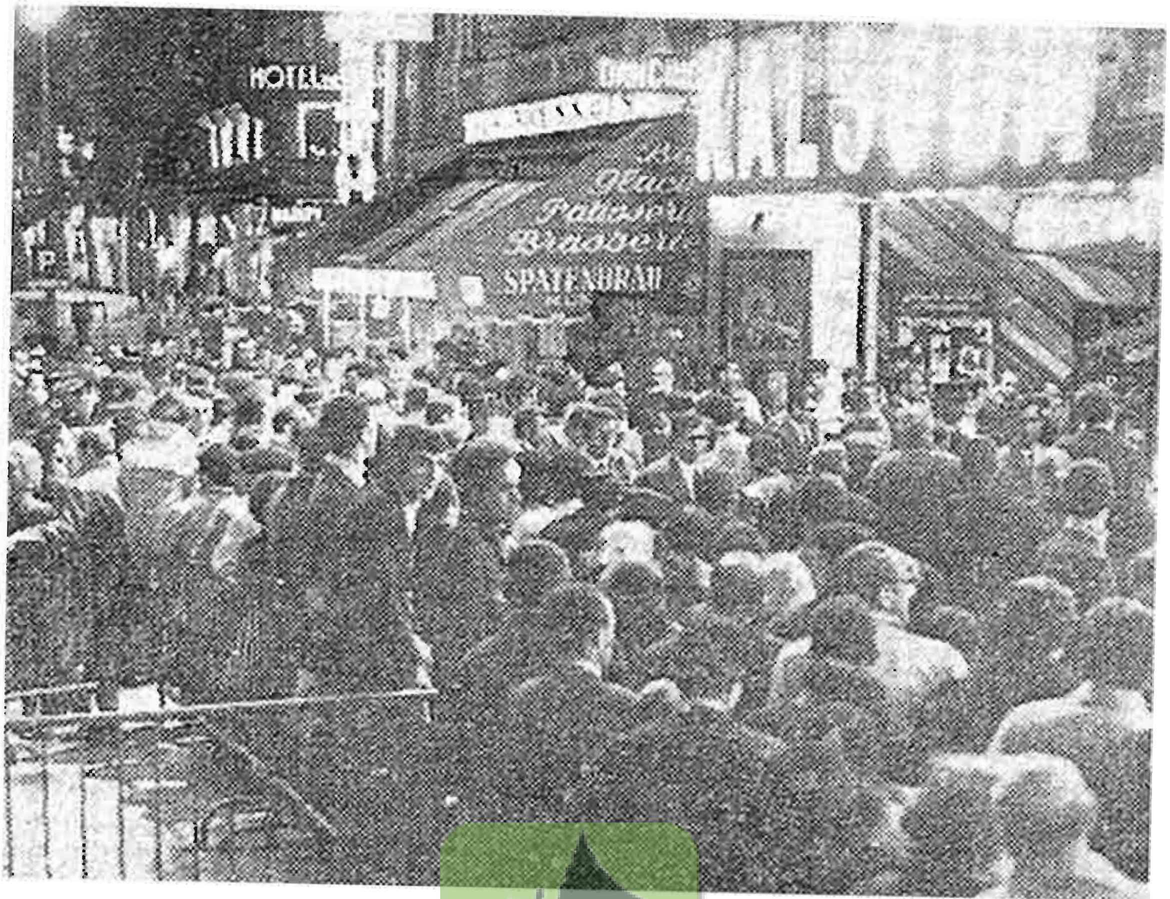
الحصيلة ان ام كلثوم قامت بعملية تأميم لعاطفة الحب . اصبح الحب ملكية عامة حبا للجميع .

وأنت لا تستطيع أن تسأل أم كلثوم ما هو الحب ؟ اذن اسأل من يصلي من هو الله ؟ اسأل من يعيش ما هي الحياة اسأل من يتنفس ما هو الهواء ؟ !

الحب الذي تعبر عنه أغاني ام كلثوم هو حب من نوع خاص حب يجعل النهار اطول والليل اقصر والقمر ينير اكثر والنجوم تصبح اجمل واكبر والشجر قبل الربيع نراه اخضر

ان الفيلسوف الاغريقي افلاطون كان يرى ان الحب ـ من بين جميع آلهة الاغريق ـ هو احسن صديق للرجال. احسن مساعد لهم . احسن شاف لأمراضهم .

وهذا المفهوم نفسه تجده في اغاني أم كلثوم . حب للحب . تماما كالفن للفن . كالحياة للحياة . ان الحب ـ في اغانيها ـ يتألم بلذة ، يضحي في صمت ، يتعذب في سعادة ، يقاسي من بعيد ، انه حب لا ينتظر تعويضا عن عذابه . لا يتوقع مكافأة . الحب مستمر . شيء لا مفر منه . حكم ابدي . قدر . انه عاطفة يبحث عنها العاشقين مع علمهما مقدما بانهما سيتألمان . ولكنهما ـ في



امام مسرح الاوليمبيا فى باريس .. تزاحم الجمهور على باب الدخول ليستمع الى ام كلثوم ..

النهاية ـ يقولان مع ايمرسون : « كل المتع الاخرى لا تستحق آلامها .. الا الحب » !

وام كلثوم ـ فى تعبيرها غنائيا عن هذا المفهوم من الحب ـ انما تعبر عن مفهوم اساسي طلبه الانسان من الحب زمنا طويلا . فالانسان ـ منذ البداية ـ يعيش بالحب . وفى الحضارات القديمة جعل الانسان للحب الها . فالحب هو الأقدم بين كل الآلهة . موجود قبل كل الآلهة . هكذا تصور الاغريق مثلا . ان كيوبيد عندهم له صفات اربع : انه طفل دائما . أعمى دائما . عار دائما . يرمى سهامه دائما .

والحب فى اغانى ام كلثوم لا يعبر عن موقف غالبا . انه يعبر عن حالة نفسية .

ان الهوى فى اغانيها بلا مواعيد . وعندما يأتى فانه : غلاب . هجره مرار وعذاب . يومه بسنة . كل شيء فيه بقضاء .

والحبيب فى اغانيها له : ابطاء المذل المنعم .. وتجنى القادر



ارفع وسام باكستانى لام كلثوم .. فى حفل اقامه لها سفير باكستان بالقاهرة من اجل هذه المناسبة ..

المتحكم . يحرمها من رضاء . يشجيه انينها .

انها تهجره حتى تنسى هواه وتودع قلبه القاسى . ولكنها تكتشف انها تفكر فيه وهى ناسية !

انها تناديه على مشهد من « .. الليل وسماه ونجومه وقمره وسهره » .

انه عمرها . انه حبيب الامس .. وحبيب اليوم .. وحبيب غدا . حبيب لكل العصور .

انه يغمض عينيه حتى يراها . يوحشها وهى امام عينيه .

وحبها له فيه « وصال ، ودلال ، ورضاء ، وخصام . من ده وده » .

و ـ الحب كده ..

ازاى كده ..؟

أهو ده اللى جرى !

انها اذن صورة تحدد ابعاد الحب : محير دائما ، مؤلم دائما ، ممتع دائما . انه حكم على الجميع . ضرورى للجميع . انه حب للجميع ! انه حب لا يعبر عن الواقع كصورة فوتوغرافية . انه يجمع الواقع كلوحة زيتية . ليس موقفا .. ولكنه حالة . ليس حقيقة .. انه خيال .

⊙✣⊙

ولكن الحب فى اغانى ام كلثوم لا ينفرد بهذا الوضع الخاص . وضع استثنائى . ان كلمات الحب ايضا لها وضع استثنائى .

لقد سمعت مرة رئيس وزراء ولاية بماليزيا يقول لام كلثوم : « اننا نتعلم اللغة العربية من خلال اغانيك » !

فى الواقع ان ام كلثوم تعيد الحياة الى كلمات كثيرة فى اللغة العربية هجرناها منذ مدة طويلة . انها تقوم بعملية تلميع لكلمات علاها صدأ كثير ، فتصبح براقة ناصعة .. ومفهومة ! انها تقوم فى الواقع بالتوسط بيننا وبين اللغة العربية الفصحى . وساطة مقبولة من الجانبين .

خذ مثلا هذا البيت من قصيدة أحمد شوقى (سلوا كؤوس الطلا)

باتت على الروض تسقينى بصافية
لا للسلاف ولا للورد رياها

او ـ هذا البيت :

حمامة الايك من بالشجو طارحها
ومن وراء الدجى بالشوق ناجاها

ان اى صحيفة لو نشرت هذه الابيات الان لاحتاجت الى توزيع قاموس معها لشرحها . قاموس تقول فيه ان « الايك » هو نوع من الشجر . وان « الدجى » معناها الليل . و « الشجو » هو الهوى

لن تجد هذه الكلمات اليوم فى كتاب ، او مجلة ، او صحيفة ، ولا حتى فى مؤلف جامعى . نادر .

⊙✣⊙

وسحر ام كلثوم يتركز اولا فى شخصيتها . وثانيا فى صوتها . صوت ابعاده من ٦٠ الى ١٦ الف ذبذبة فى الثانية . بينما اقوى صوت يليها يصل الى ١٠ آلاف ذبذبة فى الثانية فقط . حقيقة علمية

هذا الصوت هو الذى عطل المرور فى حى شبرا بالقاهرة ساعتين



دموع على مسرح الاوليمبيا في باريس   دموع لم يرها احد ..

عندما اذيعت اغنية « انت عمرى » سنة ١٩٦٤ . حى شبرا يسكنه مليونان من السكان .

هذا هو الصوت الذى هتفت له الجماهير فى تونس قائلة : اهيكا ام كلثوم .. وعبرت عنه فيروز عندما ظلت تردد لها الله يخلى اياك. ويسمونه فى باكستان : ممتازة الامتياز. واستقبلوا صاحبته فى السودان والمغرب والكويت استقبال رؤساء الدول !

هذا هو الصوت الذى كتبت عن صاحبته مجلة « تايم » الامريكية تقول : « ان اسطورة أم كلثوم تكبر وتستمر منذ ٣٢ عاما لانها اشهر واقوى شخصية فنية فى الوطن العربى . وليست هناك اية علامة على ان كوكب الشرق تتأثر بالزمن ، لان العرب يؤمنون بانه يزيدها قوة ويضيف الى صوتها غنى وصفاء . وفى الشرق الاوسط هناك شيئان لا يتغيران ولا ينال منهما الزمن .. ام كلثوم والهرم » .

اما جريدة اوبزرفر البريطانية فتقول : « ان ام كلثوم هى نجمة الغناء العربى التى تجمع كل العرب حول اجهزة الراديو فى الخميس الاول من كل شهر خلال موسمها ابتداء من الخريف حتى مطلع الصيف . بينما المحظوظون الذين يستمعون اليها مباشرة فى القاعة ويرتفع صوتها فى حنان ويتماوج مع المشاعر ويعبر عنها . ان ام كلثوم تعتبر مؤسسة وطنية راسخة تماما كالهرم الاكبر » .

وقالت « لومانيتيه » بعد حفلها فى باريس : انها فنانة تملك سلطانا مدهشا تؤثر به على الجماهير .

وقالت « الاسوشيتدبرس » : لقد شهد الشرق الاوسط ثورات وانقلابات ، وطرد ملوكا ، وظهر رجال اقوياء ولكن شعبية ام كلثوم بقيت كما هى منذ اكثر من نصف قرن .. فهى ملكة الغناء العربى بلا منازع .

اما جريدة « فرانس سوار » فتذكر : ان شهرة ام كلثوم فاقت شهرة اعظم المطربين فى العالم الذين استمع اليهم الفرنسيون على مسرح الاوليمبيا . بل انها اصبحت اشهر من جان دارك وتفوقت على اديث بياف وماريا كالاس . ان شهرة ام كلثوم فى المنطقة العربية لاترتفع اليها ولا تعادلها شهرة اى نجمة للغناء فى هذا الجزء من العالم .



عندما تغنى ام كلثوم : آه هنا وآه هنالك !

هذا الجزء من العالم ؟

نعم هذا ما قالته الصحيفة الفرنسية .

ان المنطقة كلها من المحيط الى الخليج هى جزء واحد عندما تغنى ام كلثوم . سقطت الحواجز . ذابت الحدود . اتحدت الآذان داخل عشرة ملايين كيلو متر مربع . هذه هي النقطة . ان صوت ام كلثوم اقام اول سوق عربية مشتركة . سوق فى حال غير الحال ليلة تغنى ام كلثوم كل الاذاعات تنقل صوتها كل المستمعين يعطونها آذانهم القديم والجديد ، الحكام والرعايا ، الوزير والفقير ، راكب الجمل وراكب السيارة ساكن القصر وساكن الكوخ ، مشاهد التليفزيون ومستمع الراديو . ان غناء ام كلثوم موجود حيث توجد كل نسمة هواء فى هذه المنطقة لقد تركت ام كلثوم بصماتها على الهواء الذى تتنفسه هذه الامة الحياة غير الحياة عندما تغنى . العواطف غير العواطف ، الناس غير الناس .

« هبلت الناس يام كلثوم »

هكذا قالت لها احدى سيدات المجتمع معبرة عن اندفاع الجماهير لاستقبال ام كلثوم وهى تغنى فى تونس هكذا قال ايضا الصحفى الدانمركى دينيس دوبرلى عندما شاهدها تغنى فى ليبيا لم يكن يفهم ما تغنيه ، ولكنه كان يسمع كان يرى .

⊙❖⊙

« الا ترى » ؟ هكذا يسألنى جارى فى حفل ام كلثوم بطنطا ارى ماذا ؟.. «ترى ثومة» ! طبعا ارى طبعا اسمع . اسمعك وانت تهتف لها « تاني يا ثومة » ! وارى زوجتك وهى تنظر الى ام كلثوم بالنظارة المعظمة صورة تجد مثلها دائما فى جميع حفلات أم كلثوم وارى الجميع فى حالة فرح وعندما زغردت واحدة من الحاضرات انفجر الجميع ضاحكين ضحكة رجل واحد !

طبعا اسمع وارى هذا كله ارى خلفى زوجا ، وامامى عاشقا اما انا فمنطقة محايدة ! انا محاط بساندويتش من الازواج والعشاق لقد جاء الزوج بزوجته فى يده وذكريات فى عقله ودمعة فى عينه ومنديل فى يده . زوج مخلص .

وارى العاشق بحبيبة فى ذراعه .



••• « الله يخلل اياك » • كلمات قالتها فيروز لام كلثوم فى بيروت ثم قبله على الخدين ••

غناء أم كلثوم هو ـ بالنسبة للزوج ـ محاولة لتجميل الماضى . وبالنسبة للعاشق محاولة لاكتشاف المستقبل .

فالحب عند الاول ماض انتهى بدمعة . وعند الثانى حاضر يتحرك بابتسامة .

لم يعد الماضى بالنسبة للاول ذكرى انتهت منذ سنة ، ولا منذ خمس دقائق . الماضى أصبح موجودا الان . الماضى أصبح حياه . الماضى تحكى عنه أم كلثوم . والله زمان .. يا حب !

والمستقبل بالنسبة للعاشق لم يعد شيئا يطويه الغيب . ولا هو شيء يحذره منه الاصدقاء . المستقبل اصبح موجودا الان . يتحرك على المسرح .. يتدلل فى الميكروفون . المستقبل أصبح هذا الذى تكشفه أم كلثوم بغنائها . المستقبل اصبح كل هذا الحب .. هذا الدلال .. هذا الألم .. هذا السحر .. هذه المتعة .

والزوج معه طفلة . طفلة فى الثانية عشرة على ما يبدو . انها تستمع أيضا الى اغنية الحب التى تغنيها ام كلثوم . تستمع بمتعة وشغف لقصة حب ترويها ام كلثوم . تستمع اليها كما لو كانت تنظر من ثقب الباب لترى ماذا يفعل الاخرون عندما يحبون ! اصبرى قليلا يا عزيزتى الصغيرة !

⊙❖⊙

اننا نقول فى المسرح ان هاملت ــ بطل شيكسبير ــ هو رمز للشك وان « عطيل » ــ بطل شيكسبير أيضا ــ هو رمز للغيرة .

ولقد اصبحت ام كلثوم رمزا للحب . اصبحت كذلك حتى بالنسبة للذين لم يجربوا الحب بعد . حتى بالنسبة للذين يعتبرون الحب ذنبا واثما . حتى هؤلاء يستمعون اليها كما لو كانوا يقومون برحلة الى عالم الذنوب دون أن يرتكبوا ذنبا . يسبحون فى البحر دون ان تبتل ملابسهم .

وعندما انتهت ام كلثوم من غنائها بدا الجمهور ــ بصعوبة ــ يغادر كراسيه . وبدات الساعات فى ايدى الجمهور تعود الى الدوران ، بعد ان توقفت عقاربها اربع ساعات حتى تستمتع

بدا الجمهور يعود الى منازله .. « انتهى الليل وسماه .. ونجومه .. وقمره .. وسهره » ، لم يعد هناك سوى « انت .. وانا » كا الان فى الحب سواء كاننا كنا فى ليلة من الف ليلة .

من الان فصاعدا لن يكون الحب اثما . من الان فصاعدا لاخطيئة لا ذنب ، لا خوف ، لا انتظار ، لا فراق ، لا ألم من الفراق .

لقد تحققت النهاية . اصبح لنا قلب جديد وعواطف جديدة . عاد الجمهور الى منازله اثنين اثنين .

عاد بالخطوة البطيئة !

« كل منا يبحث فى السعادة عن
الجزء الذى يهمــــه » ..

ام كلثوم

أم كلثوم ..
فى البيت

أم كلثوم ست بيت فاشلة جدا !

انها مثلا لاتجيد الطبخ ! فى الواقع انها لم تحاول مرة ان تطبخ ولا مرة ! . انها لو حاولت فالنتيجة معروفة مقدما !

لهذا فان ام كلثوم لا تتدخل فى اعمال منزلها لديها من يقوم بذلك ..

ولكنها تتدخل فى أشياء أخرى تنسيق الغرف مثلا المكان الذى تعلق فيه اللوحات الفنية مثل آخر اوحة نحاسية للعذراء تجدها فى المدخل . لوحة زيتية للفنان صلاح طاهر فى الصالون . لوحة اخرى تمثل الفلاحة المصرية فى الغرفة الاولى وهكذا .

وزوج ام كلثوم له ذوقه فى المنزل ايضا ان مهنته ـ كطبيب ـ تحدد ملامح ذوقه الدقة ، النظام ، الترتيب .

ولهذا ، فبينما يختلف الدكتور حسن الحفناوى عن زوجته أم كلثوم فى مواعيد واسلوب العمل والعادات المنزلية .. فانهما يتفقان فى شيء آخر : الذوق الفنى .

والواقع ان اتفاق الذوق الفنى كان أول نقطة اتفق فيها الدكتور حسن الحفناوى وزوجته . هذا الاتفاق هو الذى أدى الى زواجهما فى سنة ١٩٥٥ .

كان الدكتور حسن من ابرز اطبائى الامراض الجلدية (الان استاذ فى طب عين شمس) وعندما يصبح الطبيب موهوبا . فغالبا ماتمتد موهبته الى دائرة الادب والفن . الدكتور **نجيب محفوظ** طبيب امراض النساء مثل لذلك . الدكتور **محمد كامل حسين** طبيب أمراض العظام مثل ثان . الدكتور حسن الحفناوى مثل ثالث .



الدكتور حسن الحفناوى مع زوجته ام كلثوم يشاهدان مباراة فى كرة القدم سنة ١٩٥٥

والدكتور حسن من « سميعة » ام كلثوم . هكذا بدأت علاقتهما مستمع .. ومطربة .

ولكن أم كلثوم كانت تتردد عليه للعلاج فى سنة ١٩٥٤ علاقة عادية أخرى : طبيب ، ومريضة .

وتطورت هذه العلاقة العادية الى اتفاق عاطفى .. ثم الى الزواج وتم الزواج بعد عودة أم كلثوم من رحلتها الى أمريكا للعلاج . تم فى سنة ١٩٥٥

وعندما تجلس ام كلثوم لن تسمع اسم حسن الحفناوى .

وعندما تجلس مع الدكتور حسن لن تسمع اسم أم كلثوم .

وجزء كبير من مجهود الدكتور الحفناوى يضيع فى الهرب من الصحفيين . قبل الزواج كان يحضر حفلاتها العامة بانتظام . بعد الزواج اكتشفته عدسات المصورين فتوقف عن الذهاب واكتفى بسماع زوجته فى البيت . وعندما بدات ام كلثوم تسافر الى الدول العربية للغناء كان الدكتور حسن يذهب الى المطار لتوديعها ومرة اخرى اكتشفته عدسات المصورين فتوقف عن الذهاب الى المطار ، واكتفى بتوديع زوجته فى البيت .

ان هذه التصرفات ـ وغيرها كثير ـ هى اصرار من الطرفين على الا تختلط حياتهما الخاصة بحياتهما العامة . اصرار يصل احيانا الى حد التزمت . انه تزمت لان شخصية الانسان واحدة فى الحالين أمام الناس ، وبعيدا عن الناس . انها شخصية واحدة .. أو من المفروض أن تكون واحدة . لهذا فان البحث فى الجانب الشخصى لحياة الفنان هو أمر مهم .. فى الحدود التى تؤدى الى استكمال بحث شخصيته العامة .

ولكن مثل هذا الرأى لا يقنع أم كلثوم بسهولة . ولفترة طويلة جدا ـ مازالت مستمرة ـ لم يكن اى صحفى يستطيع أن يسأل ام كلثوم عن حياتها الخاصة . عيب . ان الصحفى يترك ام كلثوم فى النهاية ـ بأصبع على شفتيه ـ دون أن يناقش حياتها الخاصة .

ولكن ام كلثوم تطورت . يستطيع الصحفى الان ان يناقشها بدرجة محدودة فى حياتها الخاصة . ولكنه سيكتشف بعد لحظة ان ام كلثوم قد حولت الحديث عن حياتها الى حديث عن فنها . فن !

ان هذه العزلة التي تقيمـــها ام كلثوم بين شخصيتها العـــامة وشخصيتها الخاصة لها مظاهر كثيرة فى تها نفسها .

ان الفيللا التى تسكنها ام كلثوم تقع على الجانب الغربى من نيل القــاهرة . فيللا وردية اللون .

والفيللا يحيطها سور دائرى . هذا السور هو حاجز بين امكلثوم التى يعرفها الناس ، وامكلثوم التى لايعرفها الناس. حاجز مرتفع، قبل هذا السور تحتفظ ام كلثوم لنفسها بسلطتها كفنانة . بعد السور تحتفظ لنفسها بحريتها كزوجة ، كأنسانة ، كفرد عادى . هنا ـ فى داخل هذه الفيللا ـ تريد أم كلثوم ان تستريح ، تستريح تستريح . انها تستريح كمقدمة لعمل غنائى جديد فالغناء ايضا يحتاج الى مجهود الغناء يحتاج الى استعداد . الغناء ... ... ماهذا ؟ لقد بدانا بحياة ام كلثوم فانتهينا الى غنــاء ام كلثوم ! الم اقل لك ان ام كلثوم تحول كل حديث عن حياتهــا الى حديث عن فنها ؟ ! انتباه .

⊙❖⊙

ان شخصية ام كلثوم كفنانة هى امتداد لشخصيتها كانسانة . انها غير عادية فى فنها لهذا تصر على ان تكون عادية فى حياتها .. فى اسلوبها .. فى حديثها هذا هو الانطباع الاول الذى تخرج به بعد أول دقيقة من الحدث مع ام كلثوم فى بيتها

ان وجهها ـ فى بداية الحديث ـ يعطى لنفسه اجازة من الانفعال مستمعا الى ما تقوله انت . على هذا الوجه نظارة سـوداء . خلف النظارة تختفى عين ام كلثوم متنكرة . انالانطباع الدائم الذى تتركه عيناها هو قوة الارادة . عندما تصل هذه القوة الى حدها الاقصى تصبح عنادا . عندما تهبط الى حدها الادنى تصبح اصرارا .

واذا تكلمت ام كلثوم فانها تضغط دائما على حروف الـكلمات . يداها تســاعدان فى هذا الضغط . تعبيرات وجهها تؤكد المعنى . وجه خال من الزوايا القاطعة ، معبأ بالعواطف الحادة .

ان الكلمات تخرج من فم ام كلثوم متلائمة مع جو الحديث . انها كلمات حارة غالبا باردة نادرا كلمات مكيفة الهواء .

⊙❖⊙

ولكن ام كلثوم لاتندمج فى اى حديث من السطر الاول .

انها ـ فى البداية ـ تتكلم براسها ، لا بشفتيها . انها تستمع .. وتستمع . كلمة أو كلمتين ، ثم تستمع مرة اخرى .

اقول ان ام كلثوم فى حياتها الخاصة منعزلة عن الناس ، هذه العادة جعلتنى اقول لها مرة : انك قضيت ساعات وساعات على امتداد حياتك الفنية امام الكاميرات والميكروفونات .. تجيبين وتسألين . ان هذا كله يشير الى انك تحبين الناس . او تهتمين بسماع آرائهم على الاقل . ومع ذلك فأنا أعرف انك فى حياتك الخاصة نادرا ما تختلطين بالناس . نادرا ما تلغى المسافة بينك وبينهم . ألا ترين ان هذا تناقض ؟

وكان رد ام كلثوم ببساطة : هذا صحيح . اننى اهتم بمتابعة آراء المجتمع فيما اقدمه . ولكننى مع ذلك لست نجمة مجتمع . لست كذلك بمعنى اننى لا افضل أن يرانى الناس فى كل ركن يستديرون اليه لا افضل ان اكون من الذين يراهم الناس موجودين فى كل سهرة .. ظاهرين فى كل مناسبة . على ذلك . فأنا لست من الذين يزورون كثيرا او يزارون كثيرا . لست من الذين يعيشون حياة صاخبة . انا حريصة فقط على أن اقوم بدورى الفنى . بعدها انسحب فورا متراجعة الى حياتى الخاصة . تعرف ليه ؟ لان الفنان اما ان يبنى نفسه ، أو يدمر نفسه. وانا حريصة. – حتى الان – على ان أبنى نفسى . وهذا فى الواقع ليس تناقضا كما قد يبدو . ان عملى يفرض على بعض الاعباء التى جعلتنى اختار هذا الاسلوب فى الحياة .

وعدت أسال ام كلثوم : ما الذى جعلك تصبحين فنانة ؟

وردت بسرعة : « لم اكن مطلقا اى شىء آخر . ولا اريد ان أكون اى شىء آخر »

هنا رفضت أن اقتنع برد ام كلثوم !

رفضت لاننى لا استطيع أن اقول آمين هنا بسهولة حتى لأم كلثوم !

قلت لها : انك تحدثيننى كما لو كان عملك هو كل شىء فى حياتك . ومع ذلك فأنا اعلم أن هذا غير صحيح . اعلم مثلا انك تعطين حياتك الزوجية اهتماما يساوى على الاقل اهتمامك بعملك . أليس كذلك ؟

وضحكت ام كلثوم وهى ترد : طبعا . هذا شىء ، وهذا شىء . ما دمت زوجة فلابد ان اقوم بواجباتى كزوجة . لابد الا يكون



وحدها .. مع اذاعة القاهر
صورة خاصة فى المنزل «»

انشغالى بعملى علىرا لتقصيرى فى حياتى الزوجية . ومع ذلك ؛ فحتى هنا ليست هذه هى القاعدة دائما . هنـاك استثناءات احيانا . استثناءات زوجية ؛ ليست مشاكل زوجية. ان مايجعلها كذلك هو أن زوجى الدكتور حسن وانا نقدر اعباء بعضنا . أحيانا ينهمك الدكتور حسن فى ابحاثه الطبية ويسهر معها وينشغل بها. أنا لا الومه على ذلك . نحن اذن لا نتبادل المشاكل . نحن نتبادل التقدير . ان كلا منا يعلم أن المشاكل الزوجية سببها غالبا سوء التقدير . ما دام لا يوجد سوء تقدير ، فلا توجد مشاكل . على انني لا اقول ان اختفاء سوء التقدير هو الاساس الوحيد للحياة الزوجية . لا بد ايضا من التقدير . وفى هذه الحدود فانني وزوجى نبنى حياتنا على أساس من التقدير المستمر . تقدير متبادل .

⊙❖⊙

ومن الامور المتكررة كل يوم جمعة ان تخرج ام كلثوم فى جولة مع زوجها سيرا على الاقدام فى شارع النيل . ان أم كلثوم تحب المشى . انها تسير يوميا لمدة ساعة تقريبا على النيل « .. ما عدا أيام الصيف ، لان الجو يبقى حر » .

وهى تصلى. ومن احسن اوقاتها تلك التى تجلس فيها ممدودة القامة حافية القدمين ، مرددة آيات القرآن الكريم . ان الصلاة والمشى جزءان من التقاليد الثابتة فى حياة ام كلثوم . مواعيد النوم والاستيقاظ ايضا ثابتة غالبا . فى اليوم العادى لا تتاخر فى النوم. بالكثير الساعة الحادية عشرة مساء . ثم تستيقظ فى الثامنة صباحا . لا افطار . مجرد فنجال شاى . الغداء أيضا حسب الظروف اما الوجبة الرئيسية فهى العشاء .

ولكن ، عندما تكون لديها بروفات او حفل عام .. يتغير الجدول ! الغداء يصبح هو الوجبة الرئيسية لحوم طيور وخضراوات . « الشعربة » من احب الاطعمة عند ام كلثوم . بعد الغداء تشرب دائما عصير فواكه طبيعى . عصير معد فى المنزل . غالبا عصير جوافه .

وفى ليلة الغناء لاتتناول اية اطعمة فى المساء . لا عشاء . ولكنها قبل الغناء لابد ان تشرب فنجال قهوة .. بارد . عادة . بعد الغناء ساندويتش ، ولا نوم حتى الصباح .

وحتى سنوات قليلة مضت كانت ام كلثوم تقوم دائما بزيارة

مسجد الحسين ومسجد السيدة زينب قبل أن تغنى . اما الآن فهى تكتفى بقراءة آيات من القرآن الكريم . انها تتمتم بآيات القرآن فى كل خطوة .. حتى عندما تسير فى الشارع أو تركب سيارة . لقد ركبت معى السيارة مرة فى طريقها من منزلها الى مبنى التليفزيون . وفى اول خمس دقائق اكتشفت ان عقلها ليس معى . انها تردد آيات القرآن سرا . بعد لحظات كانت مستعدة للكلام . ساعتها أبطات السيارة وبدات اجرى معها حوارا بالخطوة السريعة .

هكذا اجابت ام كلثوم !

- ما هى اكبر خطيئة : ان ترى الخطأ ولا تنبه اليه .
- احسن صديق : شخص يشاركك الملك .
- احسن مكان : حيث تنجح .
- اقصر طريق للنجاح : العمل .
- احسن عمل : الذى تحبه .
- اكبر راحة : ان تؤدى عملك جيدا .
- اكبر خطأ اليأس . انه موت مبكر !
- أسهل شيء : ان تجد خطأ لشخص آخر .
- اكبر عيب الغرور .
- احسن مدرس : شخص يرفض ان يجاملك .
- احقر شعور الحسد .
- اكبر لغز الحياة .
- اعظم شيء فى العالم الحب .
- اكبر مقلب شخص لا يفهم ما تريد .
- اكبر عدو : اسرائيل .
- اعظم مهمة : أن نفتدى بلدنا بحياتنا .
- اكبر امل : ان تعود فلسطين .

ـ **اشرف واجب : الدفاع عن الحق .**

ـ **اسمى فكرة : الله .**

⊙❖⊙

ان ام كلثوم تتفاءل بقراءة القرآن الكريم . وتتفاءل بحمل مصحف صغير فى حقيبة يدها اينما تسير . ولكنها تتشاءم اذا نسيت ان تأخذ معها عند سفرها وسادة خاصة تنام عليها . فى الواقع انها تكره اصلا ان تتشاءم لان « .. التشاؤم ، يتحول فيما بعد الى شؤم حقيقى »

والسعادة بالنسبة لام كلثوم « .. مسألة نسبية. فما يسعدنى قد لا يسعدك . وما يسعدك قد لا يسعد شخصا ثالثا . ان كلا منا يبحث فى السعادة عن الجزء الذى يهمه »

اما المراة فى رايها فهى « .. الاساس فى كل شىء . انها البداية نحو خلق اسرة متماسكة وكلما كانت المراة مثقفة زادت قدرتها على فهم زوجها ودفعه الى الامام . وما تقدمه بلدنا للمراة اليوم سوف تسترده قيمة وثقافة وكفاءة من الجيل الجديد بعد عشرين سنة »

بعد هذه الجملة فان راى ام كلثوم فى المراة يزيد تفصيلا ..

من رايها مثلا ..

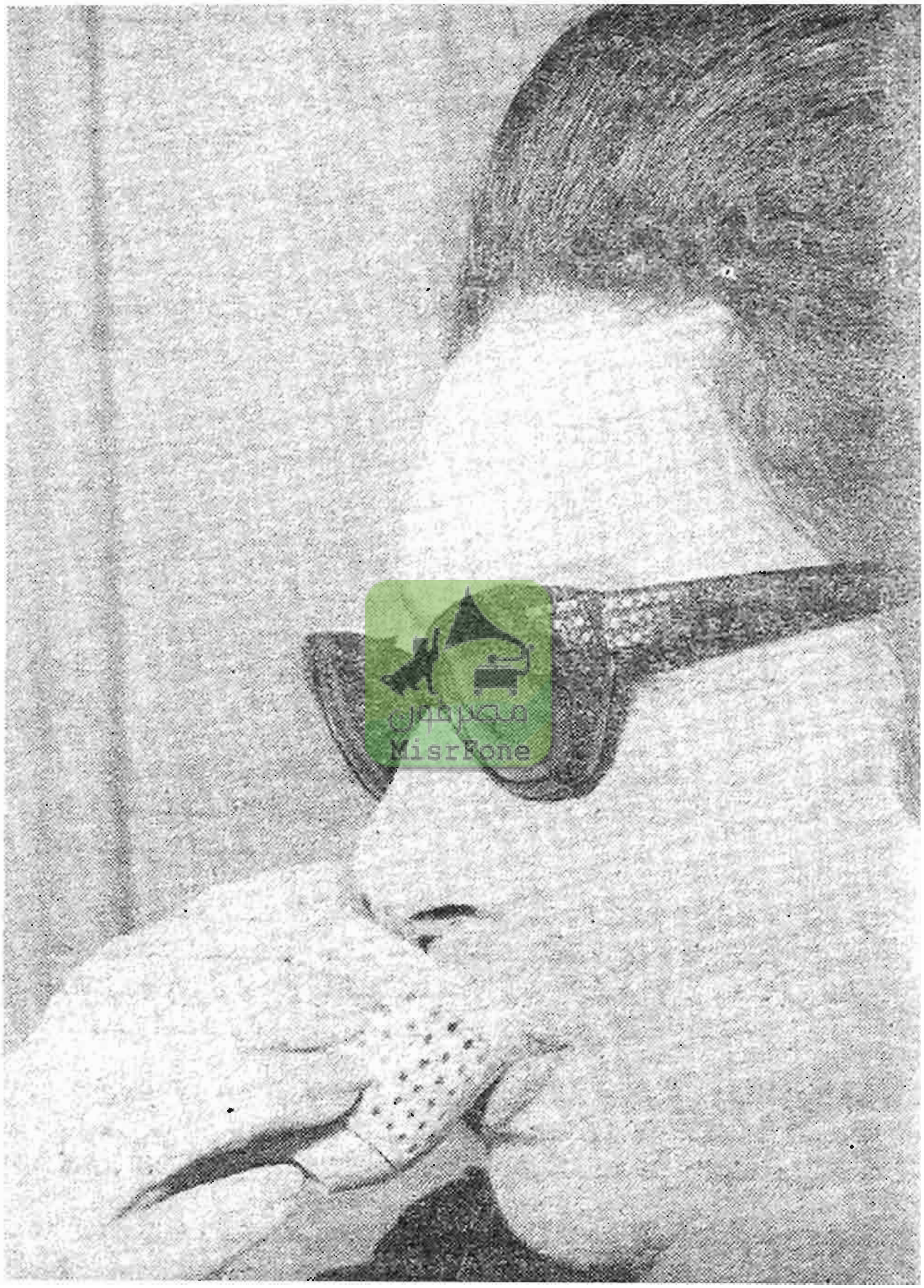
« .. **ان المراة السودانية** انيقة بحشمة ، محترمة باعجاب ، وهى بالفعل جديرة بالاحترام الذى يبديه لها الرجل السودانى ..

« .. **اما المراة فى المغرب وتونس** فانها جميلة جدا .. خصوصا بزيها الوطنى .. جميلة ومثقفة ..

« .. **والمراة اللبنانية** هى اسرع امراة عربية الى الموضة . ان الموضة تبدا فى بيروت دائما ، ثم تنتشر بعد ذلك ..

« **والمراة الكويتية** تحاول التوفيق بين حشمة مجتمعها وموضة بيروت . انها فى منتصف المسافة بين المراة السودانية والمراة اللبنانية ..

« .. وعلى اى حال ، فان المراة العربية بصفة عامة اصبحت تهتم بالذوق الفنى اكثر من اى وقت مضى .. والذوق فى حد ذاته جزء من الثقافة » ..



فنجان قهوة بارد .. لا بد أن تشربه ام كلثوم قبل الغناء ...

والواقع ان ام كلثوم نفسها حريصة على الثقافة . انها تتحدث الفرنسية بطلاقة ، الى جانب قليل من الانجليزية . وام كلثوم تعزف على العود . وهى تقرا كثيرا . تقرا الشعر. انك لاتستطيع ان ترمى بحجر فى بيت ام كلثوم دون ان تصيب ديوانا من الشعر .. أو حتى بيتا !

ان أم كلثوم تحتفظ بدواوين المتنبى وابو نواس وابن الفارض ومهيار الديلمى . تحتفظ بكتاب الاغانى لابى الفرج الاصفهانى . تحتفظ ايضا بمختارات محمود سامى البارودى واحمد شوقى وحافظ ابراهيم . من قراءاتها ايضا كتاب « كليلة ودمنة » وكتاب « حديث عيسى ابن هشام » للمويلحى .

ومن الكتب التى تحب ان تقراها وتعيد قراءتها كتاب « حياة محمد » للدكتور محمد حسين هيكل . وكتاب « الايام » للدكتور طه حسين .

بعد الكتب كانت ام كلثوم تهوى مشاهدة الافلام السينمائية وبعض المسرحيات ، خصوصا مسرحيات يوسف وهبى . ولكنها توقفت عن ذلك منذ زمن طويل . لقد حل الراديو والتليفزيون محل السينما والمسرح . فى الراديو تحب سماع الموسيقى والبرامج الدينية .

وبالاضافة الى ذلك فلديها عدد ضخم من الاسطوانات الموسيقية انها تحب سماع الموسيقى الهندية والتركية ، بالاضافة الى الموسيقى الشرقية .

وام كلثوم سبق ان حاولت التلحين . ولكنها فشلت مرتين . لقد لحنت لنفسها فى مطلع حياتها الفنية طقطوقة (على عينى الهجر دامنى) ومونولوج (يا نسيم الفجر ريان الندى) . وهما من نظم الشاعر احمد رامى .. ومسجلتان فعلا على اسطوانات .

فى الواقع انها لم تشجع نفسها على الاستمرار فى هذا الاتجاه ، بالرغم من أن عددا من أصدقائها شجعها على ذلك . السبب « .. اننى ارى ان الانسان لابد أن يرغم نفسه على التخصص » .

وايمانها بالتخصص هو الذى يجعلها تؤمن بأن التليفزيون يجب ان يكون لديه فنانوه المتخصصون فيه . انها تقول « .. كنت أحب

مددا من الفنانين عندما كنت أسمعهم فى الراديو . ولكننى عندما بدات اراهم فى التليفزيون قل اعجابى بهم » .

●❖●

وام كلثوم بعد هذا كله تحب ان تسمع نفسها . انها تقول لنفسها « آه » ! وهى عندما تفعل ذلك تكون بمفردها . ام كلثوم وحدها . مع ام كلثوم . وهى تقول « .. اننى اسوا مستمع لنفسى ! فحينما اسمع تسجيلاتى .. اسمعها باذن اخرى . اذن الناقد القاسى . الناقد الذى يعرف ان كل شىء كان يمكن ان يكون احسن » وعملى كان يمكن أن يكون افضل. بل اننى لا ارضى عن غنائى سوى مرتين فى السنة ، هما اللتان احس فيهما فعلا اننى تفوقت على نفسى » .

وهى تقول ايضا : « .. اننى حريصة جدا على أن تكون حياتى مليئة باكبر قدر من العمل ، واكبر قدر من النظام . ان العمل والنظام لم يساعدانى فنيا فقط ، وانما ساعدانى صحيا ايضا بدرجة متساوية . اننى مثلا مدينة لفنى بصحتى . ان النوم المبكر والسهر نادرا والقراءة المستمرة والاستماع الدائم .. ليست مجرد عادات اجتماعية او ثقافية . انها ايضا عادات فنية . وبالاضافة الى ذلك . فان الغناء بالنسبة لى هو متنفس لاشياء كثيرة. متنفس لطاقات كثيرة لا اجد وسيلة اخرى التعبير عنها .

وهنا خطر لى فجاة ان اسال : ام كلثوم .. لماذا تغنين ؟

ـ ايه .. ؟

ـ لماذا تغنين ؟

ـ آه .. لاننى اريد ان اكتشف فى نفسى شيئا اريد التعبير عنه .

ـ وهل حققت لك اغانيك هذا التوقع ؟

ـ لا . ليس بعد .

ـ الا يمكن ان يكون غناؤك من اجل النقود .. او من اجل الشهرة مثلا ؟

ـ ممكن .. ولكن هذا ليس صحيحا الان ..

ـ ليه ؟

ـ اولا لاننى لم اعد فى حاجة الى النقود .. حاجتى اليها ايام

طفولتى مثلا . نفس الاجابة بالنسبة للشهرة . كل المسألة اننى اغنى لاننى احس احيانا بانه ربما تكون لدى فكرة اريد ان انقلها او عاطفة اريد ان اعبر عنها ، او هواية اريد ان امارسها . تاتى بعد هذا كله نقطة هامة جدا : ان الانسان لابد ان يعمل ما دام قادرا على ذلك . لابد ان يعمـــل .. لان قيمته هى عمله . ليست ثروته .. ليست شهرته . وانا لا اتصور يوما من حياتى يمر من غير عمـل . اننى حريصة على ان تكون حياتى اطارا لعملى . حياتى هى الاطـار .. والعمل شيء مكمل له .. شيء مجمل له .

ـ بمناسبة العمل .. هل يتطلب عملك نفقـــات كثيرة فى بعض النواحى .. الملابس مثلا ؟

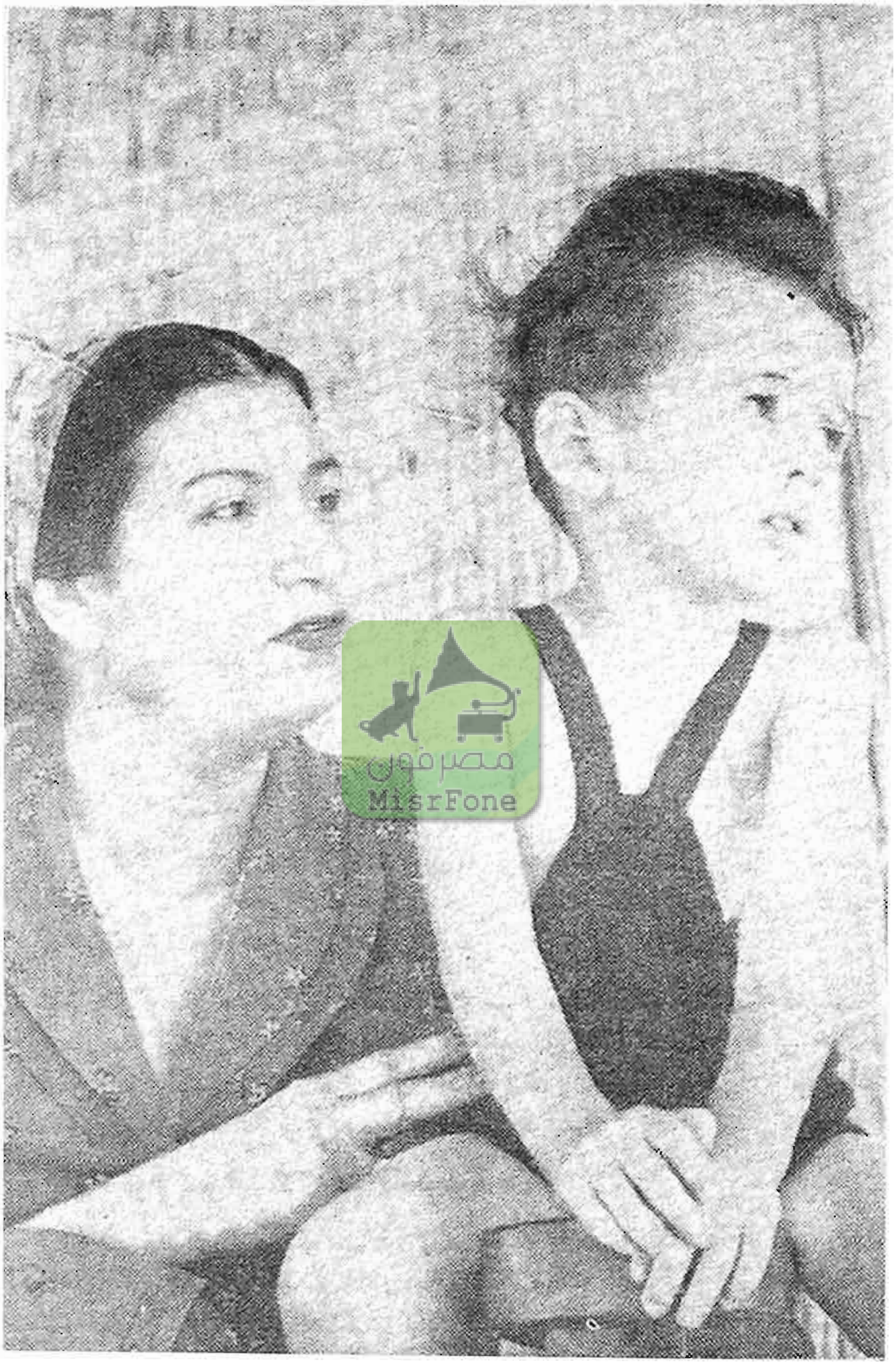
ـ لا . ليس دائما . وليس كثيرا . آه .. تصور ، انه نشر عنى خبر مرة يقول ان الفستان الســـواريه الذى ارتديه يتكلف ..٤ جنيه . معقول ؟ لا ادرى من اين جاءوا بهذا الرقم ان فساتينى تتكلف اقل من ذلك بكثير . اقل جدا

ـ وافرضى انه يتكلف ..٤ جنيه يجرى ايه ؟

ـ لا شيء الا ان المهم فى المسألة ليست تكاليف الفســتان .. انما ذوقه . هكذا ارى . وبالنسبة لى فاننى لا انقل الموضــة ، مع اننى اتابعها . اتابعها لكى آخذ منها ما يناسبـــنى انا لا اريد ان ارتدى فستانا يلفت نظر النــاس والا تبقى معــرض .. موش موضة ! ان اهم اربع صفات فى الفســتان الذى ارتديه هى : اولا ـ ان يكون حشمة ثانيا ـ الا يكون متخلفــا عن خطوط الموضـــة السائدة . ثالثا ـ ان يكون هناك ذوق فى الوانه .. بمعنى ان تكون الالوان منسجمة فى تركيبها مع بعضها اما الصفة الاخيرة فهى ان يكون الفستان بسيطا ان البســاطة هى دائما المشكلة .. وهى الحل » !

⊙❖⊙

وعندما انتهت ام كلثوم من كلماتها بدات افكر . انه سوء تفاهم هذا ســـوء تفاهم منتشر بين ام كلثوم من ناحيـــة ، وبين جزء من جمهورها من ناحية اخرى . نتيجة غير مقصودة لطبيعة العـلاقة بين الاثنين . المشكلة ـ فى رايى ـ هى ان الجمهور « يعبد » ام كلثوم وعندما « نعبد » احدا فاننا نضعه على مسافة بعيدة منا . اننـــا نحيطه بهالة تختلط فيها حقائق قليلة بخيال كثير . انه دائما يلبس



منذ سنوات طويلة مضت .. اصبحت صور ام كلثوم مع الاطفال - مع اى طفل - هى احب صورة لها فى البومها الخاص . سر آخر من اسرار حياتها الشخصية ..

« اغلى » ويتكلم « أحسن » ويتصرف بلباقة « اكثر » . انه معفى من الانفعال ومستثنى من الخطأ ..

وهذا هو وجه الخطأ ! !

لقد سألتنى فتاة مرة هل تعتقد ان ام كلثوم مثل أى واحدة فينا .. تحب وتكره ، تصيب وتخطىء . تفرح وتبكى . تتفاءل وتتشاءم ؟

طبعا ام كلثوم هى هذا كله ! ان صورة ام كلثوم لن تكبر بمزيد من الخيال .. بل بمزيد من الحقائق . ام كلثوم فى حياتها العادية ليست شخصا مختلفا عن كل الاشخاص . انها انسانة عادية جدا . وربما كان الخلاف فى الدرجة ، ولكنه ليس خلافا فى النوع . خلاف يرجع الى ان عواطف الفنان دائما عواطف سكوب . عواطف مركزة وعميقة .

ام كلثوم تسعد وتتألم .

طبعا هى تسعد عندما تنجح فى عملها . ولكنها تتألم جدا عندما ترى مريضا امامها ولا تستطيع أن تفعل له شيئا . كان لديها مرة « شغالة » تعمل فى منزلها ، ثم أصيبت ساقها بكسر . وعلى الفور الغت كل ارتباطاتها السابقة ونزلت بالفتاة الى مستشفى الهلال بالقاهرة . وبعد أن اجرى المستشفى اللازم للفتاة استعدت ام كلثوم للعودة الى منزلها تاركة الفتاة فى المستشفى بناء على طلب الاطباء . فى هذه اللحظة بكت الطفلة . « .. قالت لى لازم ارجع معاكى . ولم استطع ان أحتمل دموع الطفلة. عدت بها معى وطلبت من الطبيب أن يعالجها فى المنزل » .

أم كلثوم تفرح وتبكى . لقد بكت مرة بعد نجاح حفلتها بمدينة باريس سنة ١٩٦٨ . وقتها قالت « مع كل هذا النجاح الذى حققه الحفل ، الا اننى كنت اتمنى ان امثل بلدى هنا وهى فى ظروف افضل مما اصبحت فيه بعد النكسة » .

ام كلثوم تعرف الازمات النفسية ..

ان اعنف ازمة مرت بها فى السنوات الاخيرة كانت قبل وبعد علاجها من تضخم الغدة الدرقية. لقد ظلت الغدة تؤلمها لمدة ثمانى سنوات ، الامر الذى هددها بالتوقف تماما عن الغناء . وعندما ذهبت الى امريكا لعلاج الغدة سنة ١٩٥٤ توفى أخوها خالد وهى

هناك . يومها حرص الاطباء على عدم ابلاغها بالخبر ، بعد ان علموا مدى حبها لخالد ..

وعادت ام كلثوم الى القاهرة فعلا دون ان تعلم بالخبر . انها لم تعلم الا بعد ان وصلت الى المنزل . خبر سبب لها اقصى درجات الالم . فى الواقع ان وفاة أخيها سببت لها أزمة نفسية لازمتها مدة طويلة .. خلال هذه الازمة اعتزلت ام كلثوم الحياة تقريبا . كانت تحبس نفسها فى حجرة صغيرة بالمنزل دون أن تتكلم الى أحد .. او تطيق أن يتكلم اليها احد ..

وبسبب هذه الازمة تدخل الاطباء ..

قال الاطباء انه لا امل .. « .. لا املَ فى أن تعود ام كلثوم الى حالتها النفسية الاولى الا اذا عادت الى الغناء من جديد » .

وام كلثوم تكره ...

انها تكره ان يخدعها أحـــد . انها تروى مثلا هذه القصـــة : « انتهيت من الغناء فى احدى الحفلات .. ثم جاء الى واحـــد من المعجبين الذين أعتز بهم .

قال لى : ايه ده .. انت كنت مش معقولة الليلة دى !

سألته : يعنى ايه ؟

قال : يعنى عملتى حاجات ماحصلتش قبل كده !

سألته : يعنى ايه ؟

قال : يعنى كنت روعة . كنت عظيمة . كنت مبدعة .

ولم أفعل شيئا غير اننى شتمته !

لقـــد فعلت ذلك لاننى فى تلك الليلة بالذات لم اغن كما يجب أن اغنى . كانت اعصابى متوترة وحالتى النفسية سيئة ..

فلم استطع حتى ان اكون فى مستواى العادى . ولهذا كرهت من هذا المستمع نفاقه . واحـــدة من اثنين : اما انه لا يفهم ، وانا لا احب ان يسمعنى من لا يفهم . واما انه يفهم ولكنه ينـــافقنى ، وانا اكره من ينافقنى ، لانه لن ينبهنى الى عيوبى » !

وام كلثوم تضحك !

ان خفة دمها هنا قد تتركز فى موقف ، او صدفة ، او قفشة .

دخل اليها فى البيت مرة زميل صحفي . زميل قصير القامة . وصافحته أم كلثوم واقفة وهى تقول له : اظن انت الواحد نعمد لك

وكان الموسيقار محمد القصبجى مشهورا عنه بانه يصبغ شعر راسه وسوالفه حتى يبدو اسود اللون دائما . ولكن ام كلثوم قالت له فى البيت مرة : كفاية بأه يامحمد .. دى بقت ختامة !

وفى مرة اخرى كان محمد القصبجى مسافرا معها فى القطار . ثم تذكر فجأة انه نسى ان يصبغ شاربه . فاخرج قلما اسود من جيبه وبدأ يصبغ شاربه . حينئذ اشارت اليه ام كلثوم ضاحكة : شوفوا الرجل رجع شاب « بجرة قلم » ! !

وفى مرة علقت لى على مقال نشر عنها فى مجلة اسبوعية . مقال كتب بلغة صعبة للغاية . وعندما قالت لى ام كلثوم ان المقال لم يعجبها سالتها عن السبب فقالت : لان كل كلمة فيه لابسة عمة ! !

وأم كلثوم تحب ..

ولكن حبها من النوع التفصيلى ، المحدد ، انها تحب بيت شعر ، أو صورة ، أو موقفا ، أو نكتة بالذات ، وبالتحديد . وعندما تتذكر شيئا فانها تتذكر هذا البيت ، هذا الموقف ، هذه الصورة ، هذا الطفل .. الطفل الذى يملأ بيت ام كلثوم بشقاوته هو عادل .

وعن عادل تقول ام كلثوم « ان عادل هو اشقى اطفال الاسرة كلها . ومع ذلك فمنذ اليوم الذى ولدته فيه بنت عمى وانا احبه جدا . لقد جاءت به بنت عمى منذ اربع سنوات ونصف سنة وهو رضيع لكى ابحث لها عن طبيب يعالجه من لين العظام . ثم اقتضى علاجه ان يبقى فى هذا المنزل . بعدها طلبت من امه ان تقيم معه هنا انه الان فى مدرسة الحضانة ، وعمره لا يزيد على خمس سنوات ، ومع ذلك فانه فى غاية الذكاء وسرعة البديهة .. احيانا اتصور انه يملك عقل رجل فى جسم طفل » .

وحتى الصورة التى تحبها ام كلثوم فى البومها هى صورة طفلة



الاغانى .. للاصفهانى   واحد من الكتب التى تحتفظ بها ام كلثوم فى مكتبتها الخاصة ..

تقبلها اثناء زيارتها للسودان . فى الواقع انك سوف تجد مثل هذه الصورة منشورة بعد كل حفل لام كلثوم . صـــورة طفلة صغيرة تقبلها ام كلثوم .

اكبر طفلةفى منزل ام كلثوم اسمها نعمات . انها بنتابناخام كلثوم لقد انفصل ابواها بالطلاق منذ سنوات . ثم تزوجت والدتها وتزوج ابوها . بقيت الفتاة الصغيرة ـ وعمرها تسع سنوات . اخذتهـــا ام كلثوم لتربيها هى فى منزلها . ولم تكن الفتاة قد دخلت مدرسة ولا حتى ذهبت الى كتاب . وعنـدما بدات نعمات تستقر فى منزل ام كلثوم احضرت لها مدرسا خصوصيا استمر يعلمها ثمانية شهور انها فتاة ذكية . لذلك نجحت بتفوق عندما ادت الامتحان فى مقرر ثلاث سنوات دفعة واحدة . انها الآن فى السنة الثـانية بالمرحلة الاعدادية ، وهى باستمرار تتفوق فى مدرستها . بالذات فى اللغتين العربية والانجليزية .

ان ام كلثوم تحب نعمات ، مثلما احبت عادل من قبل .

ولقد سالت ام كلثوم مرة : هل تعتقدين ان الزوج والزوجة هما الطرفان الوحيدان فى الاسرة ؟

قالت ام كلثوم الزوج والزوجة هما الطرفان الاساســيان فى الحياة العائلية ، ولكنهما ليسا الطرفين الوحيدين . طبعا هنـــاك اطراف اخرى ، منها وجود الاطفال مثلا ، ولعل هذا ما تقصده ..

وقلت بسرعة : صحيح صحيح . هذا بالضبط ما اقصـــده . ولعلنى استطيع هنا ان اسالك فى موضوعات لم يسبق لك التحدث فيها مطلقا من قبل . مثلا : الم يؤد عدم انجابك لاطفال الى اضعاف حياتك الزوجية ؟

وام كلثوم ترد . ليست الفنانة ، وانما ام كلثوم الانسانة تقول « ابدا ، ابدا ، ابدا . بل ان هذا السبب نفسه جعل مشاعرى نحو الاطفال وحبى لهم يكبر ويتضـــاعف . ان اسرتى كلها تعلم مدى شعورى نحو اطفالهم وتعلقى بهم وتعلقهم بى . ان اهم شىء اشتريته من السودان مثلا فى زيارتى الاخيرة كان نسناسا صغيرا . نسناسا حقيقيا . لقد فرح به الاطفال جـدا ، وفرحت انا لفرحتهم . لانه لايوجد فى الدنيا كلها ما يساوى ابتســامة طفل وسعادة طفل . ولا يوجد اشقى ولا اسوأ من تعاسة طفل .. ودمعة طفل » .

⊙❖⊙



عند هذه الكلمة من أم كلثوم فقد قلمى النطق .

فى الواقع انا اعلم كم هى صادقة فى هذه الـكلمات . ومن يدرى لعل هذه المشاعر هى تعويض عن عاطفة اساسية اختفت من حياة ام كلثوم الانسانة .

ان ام كلثوم فشلت من قبل فى ان تكون ست بيت . وفشلت فى ان تكون ملحنة ..

ولكن فشلها الكبير حكم قدرى .

لقد فشلت فى ابسـط ما يدل عليه اسمها : ان ام كلثوم .. لا تستطيع ان تكون اما !

□ □ □



« انهـا المطربة الموهـوبة التى أثبتت أن الغنـه فن رؤوس وقـلوب » ..

عباس محمود العقاد

أم كلثوم
بين
أحمد رامي والسنباطي وعبد الوهاب!

ليس صحيحا ان اغنية « انت عمرى » كانت اول لقاء فنى بين ام كلثوم وعبد الوهاب !

لقد اذيعت الاغنية فى ٦ مارس سنة ١٩٦٤ .

ولكن ام كلثوم وعبدالوهاب غنيا معا قبل هذه الاغنية بـ ٣٧سنة

بل ان محمد عبد الوهب لحن اغنية اخـــرى ، غنتها اِم كلثوم قبل « انت عمرى » بعشرين سنة !

لقد غنيا معا فى سنة ١٩٢٧ .

كان اول لقاء بين المطربة « ذائعـــة الصيت » أم كلثوم ، وبين المطرب « الشاب » محمد عبد الوهاب .

تم اللقـــاء فى منزل والد المهندس ابو بكر خيرت . ان صاحب المنزل كان من هواة الموسيقى والغنـــاء . وكان بيته مقرا دائما لندوات اهل الفن وسهراتهم .

وفى احدى تلك السهرات تصـادف وجــود اِم كلثوم ومحمد عبد الوهاب .

و .. غنيا معا !

غنيا مونولوجا ــ مشهورا وقتها ــ من أوبريت «العشرة الطيبة» التى وضع الحانها سيد درويش . وكان المونولوج من كلمات بديع خيرى . تقول الكلمات :

على قد الليـــــل مايطول ..

مسترضى بسهرى ونوحى ..

وفى حبـــك ياللى ..



من اول ما اشوفك ..
تترد روحى ...
والمونولوج عبارة عن مناجاة غنائية بين فتى وفتاة .

وقد تبادلت امكلثوم الغناء فيه مع عبدالوهاب . وسمعها ليلتها عدد كبير من اهل الفن ، ومن بينهم حسن انور وكيل معهدالموسيقى وقتها ، ومصطفى رضا .

وحاول الحاضرون تحويل هذهالمحاولة الى عمل مشترك يستمع اليه الجمهور ...

ولكن المحاولة لم تنجح .

⊙❖⊙

وفى سنة ١٩٤٤ غنت ام كلثوم من تلحين عبد الوهاب !

لقد تمت هـــذه المحاولة فى سهرة ضمت توفيق الحكيم وفكرى اباظة والدكتور عبدالوهاب مورو وكامل الشناوى والممثلة ــ وقتها ــ كاميليا ــ ثم ... أم كلثوم وعبد الوهاب .

وفى الســـهرة سالت ام كلثوم كامل الشناوى الم تحرك فيك « كاميليا » موهبة الشعر ؟

ورد كامل الشناوى بقصيدة يقول فيها :

لست أقوى على هواك ومالى

أمل فيك .. فارفقى بخيالى

ان بعض الجمال يذهل قلبى

عن ضلوعى .. فكيف كل الجمال

ليلتها قالت ام كلثـــوم أنها مستعدة لغناء القصيدة لو لحنها عبد الوهاب .. وبالفعل .. امســـك عبد الوهاب بالعود ، ولحن الكلمات .. التى ظلت ام كلثوم تغنيها ــ بناء على طلب الحاضرين ــ حتى الصباح !

⊙❖⊙

مرة اخرى لم تخرج هذه المحاولة الى الضوء .

ولم تتم ايضا محاولات اخرى بذلها عدد من اصدقاء الطرفين من

الصحفيين ، على ان تصريحاتهما الصحفيـة كانت تفيض بمشاعر المجاملة والتمنيات الطيبة .

كانت ام كلثـوم تقول : ان عبد الوهاب يكتفى بان يلحن لى على صفحات الجرائد ..

وكان عبدالوهاب يقول : انني اعتقد ان ام كلثوم لاتريد ان الحن لها .

لم يكن ايهما يثق فى الآخر بما يكفى بعد لانتاج عمل غنائى مشترك .

لمـاذا .. ؟

فى الواقع توجد تفسيرات كثيرة لذلك . ولكن التفسير الوحيد المقبول هو تفسير بسيط هذا هو ان عبدالوهاب ـ فى مرحلته الفنية الاولى ـ كان فى الدرجة الاولى مطرب .. وفى الدرجة الثانية ملحن . كان عبدالوهاب ملحنا خصوصيا لعبد الوهاب . انه بالطبع ـ سيحتجز احسن الحانه لنفسه !

وفى نفس الوقت كانت ام كلثوم مطربة . هى تغنى للجمهور ، وعبد الوهاب يغنى للجمهـور . هى تقف على المسرح ، وهو ايضا يقف على المسرح .. الخ .

وعلى ذلك فمن المتصور ان يوجد بينهما شعور بالمنافسة . احيانا منافسة حادة وهى فى كثير من الاحيان منافسة يغنيها وينميها كثير من المحيطين بالطرفين .

⊙❖⊙

ثم تغير الحال ..

تراجعت مقدرة عبد الوهاب الاولى كمطرب الى الدرجة الثانية ؟ وحلت محلها مقـدرته كملحن . مرحلة اخرى دخلهـا عبد الوهاب والملحن ـ اى ملحن ـ عندما تصبح اصوات الآخرين هى وسيلته الوحيدة للوصول الى الجماهير .. فانه يبدا فى التفكير بطريقة مختلفة

ان الشعور بالمنافسة لن يمنعه الآن ، ولكن الشعور بالتكامل هو الذى يدفعه .

وبالنسبة لأى ملحن ـ فما بالك بعبد الوهاب ؟ ـ لايوجد صوت اكثر اغراء من صوت ام كلثوم ؛ لاتوجد وسيلة اخرى اكثر ضمانا للوصول الى قلوب الجماهير ..

من هنا بدات طبيعـة العلاقة الفنية بين ام كلثوم وعبد الوهاب .. تتغير .

ولكن العلاقة – حتى سنة ١٩٦٢ – لم تكن قد تغيرت بعد بما يسمح بتعاونهما معا . ان آثار سنين طويلة مضت .. لم تكن قد زالت تماما بعد .

⊙❖⊙

ثم تغير الحال مرة أخرى فى يوليو سنة ١٩٦٣ .

ففى احتفال ٢٣ يوليو من تلك السنة أقام نادى الضباط حفلة ساهرة حضرها الرئيس جمال عبد الناصر . وكانت ام كلثوم وعبد الوهاب من بين المشتركين فى الحفل

وفى الاستراحة دعاهما الرئيس جمال عبدالناصر الى تناول العشاء على مائدته .

وقال جمال عبد الناصر لام كلثوم وعبدالوهاب . اين الاغنية التى نقرا فى الصحف ان ام كلثوم ستغنيها ويلحنها عبد الوهاب ؟ الم يحن الوقت بعد لكي تتحول الاغنية من كلام تكتبه الصحف .. الى كلام يغنيه الناس ؟! .

ان جمال عبد الناصر لخص فى سطرين امنية عاشها الجمهور اربعين سنة !

وخلال اسابيع قليلة كان العمل قد بدا فى الاغنية الجديدة . كلمات اختارها عبد الوهاب أصلا لكي يغنيها هو ولكنه عندما بدا يلحنها اكتشف ان « اللحن لن تستطيع التعبير عنه غير ام كلثوم » .

واتصل عبد الوهاب بام كلثوم فقالت : لا مانع . تعال نبحث الامر معا .

ثم .. خرجت اغنية « انت عمرى » الى الناس . خرجت كبداية لى تعاون مشترك اتخذ من يومها بين ام كلثوم وعبد الوهاب

⊙❖⊙

والواقع ان الحان عبد الوهاب لام كلثوم تمثل مرحلة مختلفة فى تاريخها الفنى . ان عبد الوهاب نقل مستوى منافسة الملحنين على صوت ام كلثوم الى نقطة اكثر ارتفاعا . بل ان عبدالوهاب كان حريصا على ان يجعل المقدمات الموسيقية لاغانى ام كلثوم كعنوان الكتاب ، كخطاب العرش . فى خطاب العرش يتعهد رئيس الوزراء أمام الملك بأن حكومته ستعمل كذا وكذا وكذا ، انه يعطى هذه الوعود بعد أن يهاجم كل الحكومات السابقة . أنه خطاب ملىء بالوعود والآمال . ومقدمات عبد الوهاب الموسيقية فى اغانى ام كلثوم هى ايضا جدول اعمال .. قائمة وعود موسيقية طويلة !



احمد رامى .. المستمع الاول

ولقد قال لى عبدالوهاب اكثر من مرة : «ان صوت ام كلثوم يتميز بان قماشه عريض . ان فيه جمال القوة وحلاوة القفلة ورقة الجمال» .

وعندما سألت ام كلثوم عن تعليقها قالت : هذا راى عبد الوهاب .

ــ يعنى ايه ؟

ــ يعنى راى عبد الوهاب !

ــ انا عايز رايك انت فى راى عبد الوهاب ...

ــ لا احب ان أتكلم عن نفسى . ان « نفسى » هى أبغض كلمة الى نفسى !.

⊙✣⊙

وعبد الوهاب يرى ايضا ان « ..لام كلثوم فضلين : فضلا كمغنية ... اذ انها جمعت من مواهب المطرب كل مايمكن للطاقة البشرية أن تجمعه . وفضلا آخر كمساهمة بعقلها فى رفع مستوى كلمات الاغانى فى مصر والشرق .. فلولا عقليتها الواعيه لما استطاعت ان تحتضن مثلا الشاعر أحمد رامى ، وان تجعله يتعاون معها ويجود بالمعانى الرائعة التى تؤديها أم كلثوم أحسن أداء » .

وبينما نجد ان محمــد عبد الوهاب هو أحدث ملحن تعاونت معه ام كلثوم .. فان احمد رامى كان أول شاعر تعاون معها فى تاريخ مبكر من حياتها الفنية .

لقد غنت أم كلثوم لاحمد رامى .. قبل أن تراه .

ان أحمد رامى سافر الى باريس فى ديسمبر سنة ١٩٢٢ موفدا فى بعثة دراسية من دار الكتب المصرية .

وقبل سفره اعطى لصديقه الشيخ ابو العلا محمد قصيدة تقول :

الصب تفضحه عيـــونه   وتنم عن وجد شئونه
انا تكتمنــا الهـــوى   والداء اقتله دفينة
يهناجنا نوح الحمــــــا   م وكم يحركنا انينــه

⊙✣⊙

وعاد رامى من باريس سنة ١٩٢٤ ليجد أن قصيدته قد تحولت الى اغنية مشهورة لحنها الشيخ ابو العلا . اغنية تغنيها ام كلثوم .

ولم تكن ام كلثوم قد اقامت فى القاهرة بعد . كانت تأتى الى القاهرة للغناء فقط ثم تعود الى قريتها او تغنى فى مدن اخرى .

وظل رامى ثلاثة ايام يسال عن ميعاد اول حفل تغنى فيه ام كلثوم.

ان احمد رامى قد ينسى تاريخ ميلاده . ولكنه لاينسى تاريخ اول لقاء له مع ام كلثوم .

٢٤ يوليو سنة ١٩٢٤ .

فى تلك الليلة اشترى الشـاعر الشاب ـ الموظف بدار الكتب ـ احمد رامى تذكرة بخمسة قروش دخل بها صالة سانتى فى حديقة الازبكية حيث بدات ام كلثوم تغنى .

ويقول رامى : « كنت تواقا الى ان اسـمع ام كلثـوم وهى تغنى قصيدتى . انها لاتعرفنى بعد . ومع ذلك قمت فى استحياء اقول لها كأنها تعرفنى :

ـ انا بقالى سنتين بعيد عن مصر .. ونفسى اسمع قصيدتى !

وبسرعة بديهة ردت ام كلثوم ضاحكة : اهلا سى رامى .. حمد الله ع السلامة . حاضر !

وعندما بدات ام كلثوم تغنى .. أصبحت انا فى عالم آخر .. سحرنى الصوت. سحرنى جماله. سحرتنى قوته . ولم افق الا على صوت صديق لى يقول لى بعد الغناء : ام كلثوم مسافرة بكره تغنى فى راس البر .. مش تسلم عليها ؟!

وذهبت لاشكرها واتمنى لها السلامة .

ثم بقيت طوال الاربعين يوما التالية لا استطيع سماع صوت آخر يغنى . الى ان عادت ام كلثوم مرة اخرى لتحيى ليـلة فى كازينو البوسفور ..

مرة اخرى جلست صامتا فى مقعدى كالمسحور .

ولكنى فى هذه المرة عبرت عن شعورى فى قصيدة كتبتها عن صوت ام كلثوم اقول فيها :

صوتك هاج الشجوى فى مسمعى	وارسـل المكنون من ادمعى
فيه صبـابتى وفيـه الضنى	يشكو تباريح فؤادى معى
نظمت اشـعارى وغنيتهـا	منظومة الحباب من ادمعى
كانمـا لفظك فى شـدوه	منحـدر من دمعى الطبع

ولم تسمع ام كلثـوم هذه القصيدة الا عندما زرتها لاول مرة فى شهر اكتوبر من تلك السنة . يومها فوجئت بطلب غريب من ام كلثوم .

قالت لى : اريد منك ان تنظم لى اغنية زجلية !

وتوقف لسانى عن النطق ! هذا طلب لا استطيعه ولا اقبله ! اننى حتى تلك اللحظة لم اكن قد نظمت شطرا واحدا من الزجل . وحتى تلك اللحظة كنت قد اصدرت ثلاثة دواوين من الشعر ونشرت ترجمة لرباعيات الخيام عن الفارسية . لا لا . لن اكتب زجلا !

ولكن ام كلثوم استمرت فى الحديث . قالت : اننى غنيت لك من قبل قصيدة : « الصب تفضحه عيونه » . وانا ارى ان من حق الغناء ان يظفر بخيال الشعراء فى اسلوب يفهمه العامة . حل وسط . والا .. هل يعجبك مستوى الاغانى التى تغنى فى هذه الايام ؟!

عند هذه النقطة اقتنعت . وافقت على ان اكتب الزجل لاول مرة . لهذا كتبت لها : « خايف يكون حبك ليه شفقة عليه ... وانتى اللى فى الدنيا ليه ضى عنية » .

ثم استمررت فى كتاباتى لام كلثوم . شعر مرة .. وزجل مرة. بعدها غنت لى ام كلثوم : « ياغائبا عن عيونى وحاضرا فى فؤادى » ـ « ايها الفلك على وشك الرحيل » ـ « يانسيم الفجر ريان الندى » .. الى ان غنت لى : « ان كنت اسامح وانسى الاسية » . وهى الاغنية التى مثلت فى وقتها طفرة غنائية » .

انتهت ذكريات رامى . ولكن علاقتــه الفنية بام كلثوم لم تنته . فلقد غنت له ام كلثوم اكثر من مائتين وخمسين قطعة غنائية من بينها « رق الحبيب » و « ياما امر الفراق » و « ياظالمنى » و « ســهران لوحدى » و « رباعيات الخيام » و « انت الحب » .. الخ .

ولكن رامى ـ فوق علاقتـــه بام كلثوم كشاعر له علاقة اخرى بها كمستمع .

فمنذ استمع اليها لاول مرة سنة ١٩٢٤ ، لم تفته اى حفلة من حفلاتها الغنائية . لقد اصبح حريصا على ان يكون « مستمعها الاول » . هذا تعبير رامى .

وعندما كانت ام كلثوم تغنى فى الاقاليم لم يكن غناؤها ينتهى قبل الثانية صـــباحا . فكان رامى يخرج من الحفلة جريا الى محطة السكة الحديد حتى يلحق بقطار الصحف ويعود الى عمله بالقاهرة فى الصباح الباكر .



ام كلثوم مع رياض السنباطي وعبده صالح اثناء تسجيل اغنية « صوت الوطن » سنة ١٩٥٢ ٠

وحينما بدأت ام كلثوم تسجل للاذاعة فى الثلاثينات .. كانت تأخذه لكى يستمع اليها اثنـاء التسجيل فى الاستوديو ، بشرط ان يجلس صامتا تماما . كانت ام كلثوم تفعل ذلك حتى يكون رامى امامها رمزا للجمهور فى خيالها ، جمهور صامت .

وكان رامى ـ طوال عمله بدار الكتب ـ يستعير لام كلثوم من الدار كل دواوين الشعر العربى القديم وكتب الادب .. ثم يناقشانها معا . وقد اشارت ام كلثوم لمجهود رامى هذا فى مكان آخر .

اما احمد رامى فيقول : « .. اننى مدين لام كلثوم بنشر شعري . ان اقصى رقم وزع من اى ديوان طبعتـه كان خمسة آلاف نسخة . ولكننى اصبحت معروفا للملايين من خلال صوت ام كلثوم . ان اسـطوانة (ان كنت اسامح) مثلا وزعت اكثر من نصف مليون نسخة » !

ويقول رامى ايضا : اننى كنت استفيـد كثيرا من التعديلات التى تطلبها ام كلثوم فيما اكتبه . ففى اغنية « دليلى احتار » مثلا ، طلبت ام كلثوم تكرار جزء من المطلع يقول : وبين قربك وخوفى عليـك .. دليلى احتار .. وحيرنى .

وفى اغنية « قصة حب » كنت قد كتبت بيتا اقول فيه :

عشت فيها بيقينى ثم عاشت فى ظنونى .

ولكن ام كلثوم قالت ان هذا البيت فيه فجوة . وانه يحسن ان اوضـح كيف عشت فى ذكرياتى بيقينى ، ثم كيف عاشت هـذه الذكريات فى ظنونى .

ولذلك اعدت كتابة البيت فاصبح كما يعرفه الناس الآن !

عشت فيها بيقينى وهى قرب ووصـال
ثم عاشت فى ظنونى وهى وهم وخيـال

والواقع ان رامى معه الحق فى نقطتين بالذات !

* ان ام كلثوم نشرت بغنائها الذوق الرفيع فى اللغة .

* ان شخصية ام كلثوم تمتد الى الكلمات التى تغنيها .

لقد لخص عباس محمود العقاد هاتين النقطتين عند ما كتب يقول عن ام كلثوم « .. انها المطربة الموهوبة التى اثبتت ان الغناء فن رءوس

وقلوب وليس بفن حناجر وافواه فحسب . فهي تفهم ماتغنيه . وتشعر بما تغنيه ، وتعطيه من عندها نصيبا وافيا الى جانب نصيب المؤلف ونصيب الملحن » ..

واستطيع ان اقول كلمات العقاد بطريقة اخرى : ان اغانى ام كلثوم هى الصدى الصوتى لام كلثوم . اما الكلمات ـ كلمات الاغانى ـ فهى الصدى العقلى لام كلثوم .

لقد غنت ام كلثوم لملحنين كثيرين : الشيخ ابو العلا ـ داود حسنى ـ فريد غصن ـ احمد صبرى ـ محمد القصبجى ـ زكريا احمد ـ السنباطى ـ عبدالوهاب ـ بليغ حمدى ـ محمد الموجى ـ الطويل.

وغنت لشعراء كثيرين : احمد شوقى ـ حافظ ابراهيم ـ رامى ـ بيرم التونسى ـ ابراهيم ناجى ـ احمد شفيق كامل ـ مرسى جميل عزيز ـ عبد الوهاب محمد ـ جورج جرداق .. الخ .

وفى كل مرة كان عقل ام كلثوم يتحول الى معمل . الى جهاز يقارن ، يختار ، يعدل ، يضيف ، يحذف ، يقرر ..

لقد عدلت مثلا فى كلمات الشاعر احمد شوقى . قصيدة « الى عرفات الله » مثلا . يقول المطلع الاصلى : عليك صلاة الله يا ابن محمد. الاشارة هنا الى الخديو . ولكنها غنته : عليك سلام الله يا خير زائر . وفى نفس القصيدة اصطدمت بكلمة : « العرصات » . كلمة قد يستهجنها البعض فاستبدلتها بكلمة : الشرفات .

وفى قصيدة ابراهيم ناجى : « الاطلال » اضافت الى القصيدة الاصلية هاتين الشطرتين :

هلْ راى الحب سكارى مثلنا   كم بنينا من خيال حولنا

لم هذا البيت ؟

وانتبهنا بعد مازال الرحيق   وافقنا .. ليت انا لانفيقْ

لقد كتب الشاعر هذين البيتين اصلا فى قصيدة اخرى بعنوان « الوداع » . ولكن ام كلثوم اضافتهما الى قصيدة « الاطلال » ؟ وبطريقة لاتستطيع اكتشافها من اول مرة .

ان الامثلة كثيرة ..

والمهم ليس هذا التعديل . المهم ان يكون التعديلُ الى احسن . الى ارق ..

ان أم كلثوم فى حرصها على تعديل ـ ثم اعادة تعديل ـ الكلمات قبل ان تغنيها انما تضع أيدينا على مفتاح آخر لفهمها . جانب آخر من شخصيتها الغنائية . جانب لم يكتشفه حتى الآن غير عدد قليل من الذين عملوا معها

ان ماتبحث عنه أم كلثوم هو الشيء الجديد . تبحث عن فكرة ، معنى ، تعبير ، جملة ، أو ـ حتى ـ كلمة ؟ انها تفعل ذلك نيابة عن مستمعيها . صفة ضرورية جدا لكل مطرب يريد النجاح ، أو الاستمرار فى النجاح .

ام كلثوم يعجبها مثلا تعبير تقول فيه «**بافكر فيك .. وانا ناسي**» أو « **عزة جمالك فين .. من غير ذليل يهواك** » أو « **واحشنى وانت قصاد عينى** » أو « **اغمض عينيك حتى تراني** » تعجبها اغنية تتلاعب فيها بكلمات تقول « **يسقينا الهنا .. ويقول بالهنا** » أو « **ياما عيون شاغلوني .. لكن ولا شغلوني** » ..

تعجبها صورة دقيقة الظلال يرسمها الشاعر بقوله :

ما بين بعدك وشوقي اليك
وبين قربك وخوفى عليك
دليلى احتار .. وحيرنى

تعجبها صورة تركز صراعا نفسيا حادا فى اربع كلمات تقول : « **غلبت اصالح فى روحى** » أو فى خمس كلمات تقول « **أكاد اشك فيك وانت منى** » ..

ام كلثوم تحب ان تتذوق التعبيرات القوية المركزة . تعبيرات مثل « **ظالم الحسن** » أو « **هل رأى الحب سكارى مثلنا** » أو « **الثوانى جمرات فى دمي** » ، تعبيرات تصور نفس المعنى بأسلوب مختلف . مرة بقولها « **انت اقرب منى ليه .. حتى وانت بعيد عليه** » ، ثم مرة اخرى « **وانت معايا يصعب عليه .. رمشة عينيه ولا حتى ثانية** » ..

لهذا السبب اقول ان مفتاح الشاعر الى صوت أم كلثوم هو عقلها . والمفتاح الى عقلها هو الكلمة الجديدة .. الجملة الجديدة .. الصورة الجديدة . مسألة عبر عنها أذكى صديق لأم كلثوم بقوله : « **.. لو كنت شاعرا لكتبت ديواني على شفتى ام كلثوم** » سوء حظ ، فالكاتب هنا ليس شاعرا ، ومع ذلك فهذا أجمل تعبير قرأته لكاتب عن أم كلثوم ..

⊙❖⊙

والواقع ان محاولة ام كلثوم للتذوق لا تقتصر على الكلمات التى غنيها فقط ، وانما تمتد الى اللحن ايضا وان زكريا احمد ـ الفنان الموهوب الراحل ـ عندما عبر عن ذلك فى مذكراته كتب يقول ان ام كلثوم « عندما تجلس الى ملحن اغانيها او يجلس ليها ، لا تكتفى بأن يقدم لها لحنا واحدا او اثنين او ثلاثة .. وانما هى تريد أكثر من ذلك وقد تطلب من الملحن ان يلحن الكوبليه لواحد مرات متعددة ، وتتظاهر بعدم قبول هـذه الالحان وتتظاهر بعد أن تختار واحدا من الالحان المقدمة بنسيان ما عدم للاغنية الواحدة من الحـان .. وتجدد فى معظم الاغانى بألحان جديدة تبدو للمستمع الجديد انها وليدة الساعة وان كانت مخزونة فى اعماق ذاكرتها من بعيد »

مرة اخرى يكتب زكريا احمد قائلا « .. وذات مره قدمت لها غنية بثمانية الحان مختلفة لأتيح لها فرصه الاختيار فى الوقت لمناسب او فى الاوقات المناسبة انني اعتبر ان أم كلثوم (اسطى) من خيرة (أسطوات) الفن .. وصانعة من أمهر صانعات الغناء.. ولهذا فقد اختصصتها بأكثر من ستين لحنا ليس فيها لحن يشبه الآخر فى تلحينه » ..

والواقع ان زكريا أحمـد لحن لام كلثوم عددا من روع واحب اغانيها عند الناس .. لحن لها « انا فى انتظارك » و «اهل الهوى» و « الامل » و « غلبت أصالح فى روحى » و « الآهات » و « هو صحيح الهوى غلاب » و « رق الحبيب » الخ

وخلال احاديث طويلة متعددة لمست من ام كلثوم وفاء بالغا لعدد من الذين صاحبوها فى حياتها الغنائية،من بينهم ـ بل على رأسهم ـ زكريا احمد .. شعور تبادله زكريا احمد معها منـذ اول لحنين قدمهما لها فى سنة ١٩٢٥ وهما « اللى حبك يا هناه » من تأليف أحمد رامى و « هو ده يخلص من الله » تأليف بديع خيرى

من هذا اليوم ـ يقول زكريا أحمـد فى مذكراته ـ اصـبحنا « .. القصبجى وداود حسنى وانا نلحن لها حتى قدم لها مسيو زرو مدير شركة اوديون الاستاذ رياض السنباطى ومنذ هـذا يوم اصبح ملحنو أم كلثوم هم السنباطى والقصبجى وانا » ..

⊙❖⊙



ام كلثوم بين فريد الاطرش ومحمد الموجى

السنباطى ..؟!

نعم هذا هو الاسم الذى كتبه زكريا احمد . ان هذا الاسم مضلل انه لا يدل بأى حال على كل الرقة ، كل الجمال ، الذى تعبر عنه الحان السنباطى لام كلثوم ؛ ان أم كلثوم تؤمن بالتخصص ويبدو أن هذا هو السبب فى انها تسند الى السنباطى القصائد الصعبة ـ احيانا الصعبة جدا ـ لكى يقوم بتلحينها .

لقد التقت ام كلثوم بالسنباطى وهى صغيرة ، فى الواقع انها كانت ليلة ممطرة على محطة سكك حديد الدلتا فى قرية قرين بالدقهلية كانت ام كلثوم ما تزال فتاة صغيرة تضع العقال فوق رأسها . وفى تلك الليلة وقفت بين ابيها وشقيقها وقدم والد رياض السنباطى وبرفقته ابنه رياض ، ان الابوين الشيخين كانا يتحدثان معا عن الرزق فالغناء هو ميدان عمل كل منهما . بعد تلك الليلة لم يلتق السنباطى بام كلثوم الا بعد سنوات عديدة فى شركة كايروفون .. حيث كان السنباطى قد أصبح يعمل مدرسا بمعهد الموسيقى العربية .. وام كلثوم نجمة مشهورة فى المنطقة باسرها ، من هذا



زكريا احمد .. وفاه بغير حسود

اللقاء بدأت الحان السنباطى لام كلثوم .. واستمرت حتى الآن ، الحان تتفوق على نفسها . خذ مثلا لحن « الاطلال » او « دليلى احتار » او « هلت ليالى القمر » او «يااللى كان يشجيك انينى» او «رباعيات الخيام» أو « هجرتك » خذ ايضا اغنية « يا ظالمنى » وقصيدة « ولد الهدى » واغنية « لسه فاكر » و « أروح لمين » و « سهران » .. آه .. تصور ان السنباطى وضع لحن اغنية « سهران » فى سنة كاملة ! هذا هو السنباطى . لحن واحد كل سنه !

بعد ان يضع السنباطى اللحن تبدا جلساته مع ام كلثوم . هذه كلماته هو : « احيانا نجلس فى حجرتها الزجاجية اذا كنا فى الشتاء نهارا كاملا بلا طعام ، بلا ماء ، بلا تليفون ، بلا زوار . ان أم كلثوم تستغرق الوقت كله فى اجراء بروفة على كوبليه واحد فقط ، فأم كلثوم لاتغنى اللحن العادى او الكلام العادى . فاللحن الذى يوضع لام كلثوم اشبه ببناء السد العالى . وتمر الايام على هذا المنوال أسابيع ثم شهورا نضع فيها لحنا يخرج الى الجماهير فتلقاه بالحب والاعجاب » .

ان ام كلثوم تسمى السنباطي بالعبقرى . وفى أكثر من مرة كنت المس منها تساؤلها عن السبب فى أن الصحف لاتعطى للسنباطى حقه من التقدير كما تعطى لغيره . ما زال التساؤل قائما .

⊙❖⊙

ان محمد القصبجي وزكريا احمد ، ان عبد الوهاب والسنباطى ، احمد شوقى واحمد رامى ، ابراهيم ناجى وأحمد شفيق كامل ، بيرم التونسى ومأمون الشناوى .. كل هؤلاء - وغيرهم كثيرون - انما يضعون ايدينا فى النهاية على عدة ملاحظات تتعلق بهذا الجانب من شخصية أم كلثوم .

● فأولا : ان كل لحن ، كل قصيدة ، تغنيها ام كلثوم هى فى الواقع قطعة من نسيج طويل متصل الخيوط . نسيج يمثل صدى افكار ومشاعر ام كلثوم نفسها . انه صدى .. انه صورة .. انه اختيار .. انه تعبير من وعن شخصية ام كلثوم نفسها .

● وثانيا : انك لاتستطيع ان تقارن بين ملحن وملحن - بين شاعر وشاعر فبينما تغنيه ام كلثوم لكل منهما . لا تستطيع ؛ لان المقارنات هنا - برغم فائدتها أحيانا - تصبح مضللة .

● واخيرا .. فان دراسة عدد من الملحنين والشعراء الذين تعاونوا مع ام كلثوم .. ما زال امرا هاما بالنسبة لدراسة أم كلثوم نفسها . دراسة تمثل فى النهاية .. بابا خلفيا للشخصية التى تجمع بين هؤلاء جميعا : أم كلثوم .



ان ام كلثوم غنت واحبت فاستمرت

٠٠ في سنوات لايستقر فيها أحد !

أم كلثوم بين الفن والسياسة !

لكى نحب بلدنا .. يجب أولا أن تحبنا بلدنا . حب بغير شروط . بغير تحفظات . تماما كحب الام لطفلها . ان الام لاتحب طفلها عندما يكون هادئا ، وتكرهه عندما يكون شقيا . لاتطعمه عندما يطيعها ، وتجيعه عندما يخالفها لا الام تحب طفلها فى كل لحظة ، كل ساعة . كل سن . انها تحبه ــ ليس لانه حقق لها رغباتها ــ ولكن لمجرد انه طفلها . هذا يكفى . انها لاتستغل حاجته اليها . لاتستغل سلطتها عليه . انها لاترهبه . لاتخيفه . ولكنها تغريه . تشجعه . تدفعه . انها تقدم له حبها بغير ثمن . بدون مقابل . بلا تعويض . انها تعطيه حبها خالصا . على بياض ..

و ...

لقد اعطت بلدنا ــ امنا ــ حبها لام كلثوم على بياض . بلا تحفظات . هذا واحد من الامثلة القليلة النادرة فى حياتنا العامة . استثناء . لقد تصرفت الام هنا بحكمة . احبت طفلتها بلا حدود . فكانت النتيجة ان الطفلة احبت امها . والفنانة احبت جمهورها . و .. ام كلثوم احبت بلدها . حب بغير حدود .

وخلال سنتين اثنتين دارت ام كلثوم حول الكرة الارضية مرتين ! من باريس الى المغرب . من تونس الى لبنان . من السودان الى ليبيا . من الكويت الى طنطا . من المنصورة الى دمنهور . من الاسكندرية الى القاهرة .

وفى كل مرة كانت ام كلثوم تعود فيها الى القاهرة كانت تعود بمبلغ ضخم فى يدها ، وحب ضخم فى قلبها . لقد غنى صوتها بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ غنى صوتها .. وجمعت يدها الحصيلة .

الحصيلة هى مليونان من الجنيهات قدمتهما ام كلثوم لبلدها فى سنتين . تبرع اختيارى . مساهمة عاجلة . تبرع من الجمهور الى فنانته . ومساهمة من الفنانة لبلدها .



ولكن حب ام كلثوم لبلدها اهم من تبرع جمهورها لها العاطفة هنا اهم من النقود . القدوة اهم من المال .

ان مصر احبت ام كلثوم بغير حدود ، فاحبتها ام كلثوم بغير حدود . عرفان بالجميل . تقدير لعواطف متراكمة . وفاء لحب سابق .

انك سوف تلمس مظاهر هذا الوفاء دائما فى كل حديث لام كلثوم . عندما يهتف لها الجمهور فى المغرب مثلا فهى تقول : « ... كل هذا الحب لمصر كل هذا الهتاف من أجل مصر .. وليس من اجلى » .

قبلها تقول فى باريس : « انا مجرد مواطنة مصرية . لم اعمل شيئا أستحق عليه كل هـذا النجاح . ان بلدى هى صاحبة الفضل الاول فى نجاحى » هكذا تقول أم كلثوم فى باريس .. فى السودان .. فى الكويت .. فى ليبيـا .. فى لبنـان ، فى كل بلد خارج الحـدود تعبر ام كلثوم عن وفائها للحب الذى تلقته داخل الحدود . فى كل عاصمة تعلن انها عظيمة لان شعبها عظيم . ساحرة لان بلدها ساحر . تكافح بصوتها لان بلدها يكافح بسلاحه .

عند هذه النقطة ــ هذه النقطة بالضبط ــ انتقلت ام كلثوم الى قمة اخرى . قمة ثانية . من قمة الغناء الى قمة الوطنية . من قمتها كمغنية ، الى قمتها كفرد عادى . تصور .. ! الفرد العادى يستطيع هو الآخــر ان يكون قمـــة فى سلوكه ، فى عمله ، فى تصرفاته ، فى مساهمته لبلده .

لقد فعلت ام كلثـوم ذلك فى المرحلة التى لم تعد تحتاج فيها الى اثبات شيء جديد . انها تغنى ، وهى قمة حينما تغنى . انها فنانة ، وهى قمة فى فنها .. هذا يكفى . لا .. هذا لايكفى .. كما أثبتت ام كلثوم لقد تأكدت قيمتها كفنانة .

بقى ان تتأكد قيمتها كفرد عادى . هـذا ضرورى فى فترة سوف يكون الفرد العادى هو بطلها فترة بدات بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ .

ففى صراع مرير لتصحيح الهزيمة أمام اسرائيـل سـنة ١٩٦٧ ، سوف يكون الفرد العادى هو دائما البطل . هو القدوة . هو النموذج . انه ــ بعمله ، باجادته لعمله ، بقدوته فى سلوكه ــ سوف يحسم فى النهاية معركة طويلة ، ويسوى حسابا مفتوحا ، مع اسرائيل .

هنا بالضبط بدات ام كلثوم تضرب المثل فى سلوكها كفرد عادى . لقد تراجع الفنان هنا الى الخلف ، وافسح مكانه للفرد العادى . تراجع

صوتها الى مجرد وسيلة نحو هدف أكبر : تعبئة العواطف بالتضحية ، وتعبئة الخزائن بالنقود ، وتعبئة البنادق بالرصاص .

هنا بالضبط بدات شخصية ام كلثوم تنمو فى اتجاه جديد . بدات تنمو فى السن التى يتكور فيها الجسم ويتجعد الوجه وتتساقط الاسنان وتنطفىء الذاكرة . هنا تعود ام كلثوم شابة من جديد ..

فى السن التى تتدهور فيها الصحـــة ، وينكمش العقل ، وتضعف الرؤية ، وتتثاقل الخطوات . .بدات ام كلثـــوم تسرع خطواتها الى هدف جديد .

فى السن التى يتحول فيها الماضى الى حاضر ، السن التى يبدا فيها الانسان يجتر ماضـيه ، يبـــدا فى الحياة على سمعة ماضيه ، بدات ام كلثوم تعيش على سمعة حاضرها ، وسمعة مستقبلها .

فى هذه المرحلة ، هذهالسن ، هذه الظروف ، بدات ام كلثوم تصعد من جديد الى قمة جديدة . قمة خالية .

فى هذه المرحلة ، هذهالايام ، بدا الجزء الفنى فى شخصية ام كلثوم يتراجع الى الخلف ، مفسحا مكانه الى الجزءالاساسى فىشخصيتها ، الجزء الوطنى .

من الآن فصاعدا ســـوف تصبح مواطنة اولا ، وفنانة بعد ذلك ؛ المواطنة تقرر ، والفنانة تنفذ القرار .

من الآن فصــاعدا سوف تغنى ام كلثوم .. ولكن لصالح تبرعات ازالة آثار العدوان .. او لصالح تعمير مدن القناة .. او لأى عمل يخفف عن بلدنا آلام الهزيمة ويساهم فى جهود النصر ..

من الآن فصاعدا سوف تحرص ام كلثوم على ان تكون مصرية بنسبة ١١٠ ٪ ، بعد ان اثبتت انها فنانة بنسبة مائة فى المائة . تثبت بعملها ماغنته من قبل بصوتها : « بنى الحمى والوطن .. من منكمو يحبها مثلى أنا ؟ » ..

من الآن فصاعدا لن تكون ام كلثوم مجرد فرد . مجرد جسم . مجرد انسان تأكل وتنـــام وتغنى وتستريح البال . . لا . انها ــ من هذه الدقيقة ــ سوف تصبح مواطنة تفكر . وتحمل الهموم وتجمع القرش فوق القرش لكى يصنع بلدها الرصاصة فوق الرصاصة .

من الآن فصاعدا سوف تجمع ام كلثوم كل قرش لكى تعطيه لبلدها .

الف جنيه ، عشرة آلاف جنيه ، مائة الف ، نصف مليون ، مليون ، ٢ مليون جنيه ! هذا هو الرقم الذى وصلت اليه أخيرا التبرعات والايرادات التى جمعتها أم كلثوم خلال سنتين . تبرعات اختيارية . تبرعات قدمها الجمهور الى بلده بوساطه ام كلثوم . قدمها خلال عشرين حفلة غنت له فيها أم كلثوم .

والسؤال الآن لماذا ؟

لماذا كل هذا النجاح ؟

لماذا الآن . . . لماذا بهذه السرعة . . بهذا الاقبال ؟

ان جزءا من الاجابة سوف نجده فى شخصية أم كلثوم نفسها. ولكن الاجابة الكاملة سوف تجدها فى تفسير آخر

تفسير فنى لعمل سياسى قامت به أم كلثوم .

لقد اعطت أم كلثوم نموذجا لما يستطيع الفنان ـ والفنان فقط ـ أن يفعله لبلده . نموذج شهده التاريخ من قبل مئات المرات . . وسوف يشهده مئات المرات . .

ان الفنان هو ـ فى الواقع ـ اكثر من يحب بلده من ابناء بلده . الفنان يستطيع أن يحب بلده فى ساعة حبا لايستطيعه غيره فى سنة. الفنان ـ اديبا أو موسيقيا او رساما او كاتبا أو صحفيا او مطربا ـ يستطيع ان يترجم لك الوطنية الى اشياء بسيطة مفهومة . الى هواء نقى تتنفسه ، وارض حرة تعشقها ان الجمهور عند الفنان سواء : الشاب والعجوز ؛ المرأة والرجل ، اليمينى واليسارى ، الرجعى والتقدمى . كل هذه التقسيمات تختفى من قاموس الفنان ليحل محلها تقسيم آخر مختلف مواطنون يحبون بلدهم واعداء يحتلون ارضهم .

بهذا المعنى تتحول السياسة عند الفنان الى شىء خال من التعقيد والفلسفة . السياسة هنا هى الدفاع عن الارض . دافع عن حياتك . عن سمائك عن هوائك عن بلدك دافع عن أرضك

فى هذه النقطة يقف الفنان فى المقدمة . انه ليس خلفنا ؛ ليس بجانبنا ؛ انه امامنا ؛ لان الفنان ـ يقول مكسيم جوركى ـ هو أكثر البشر التصاقا بالارض .

لهذا السبب فان الشخص عندما يصبح فنانا فانه يتحول الى



غناء ورقص شعبى فى المغرب .. احتفالا بأم كلثوم ..

نموذج . الى رمز . رمز لكل ماهو جميـل وباق ومحبوب ومستمر فى بلده . .

ولقد بدات شخصية ام كلثوم تحمل هذه البـــدور منذ فترة طويلة مضت ، لقد دخلت الى المسرح تغنى مرة فى شـــهر فبراير سنة ١٩٤٩ ، ولكنها قبل ان تغنى فوجئت بضابط يستوقفها ليقدم اليها خطابا مغلقا . ما هذا الخطاب ؟ ماذا بداخله ؟ ورقة ؟ آه .. ما هو المكتوب فى الورقة ؟ مش معقول .. انه رجاء يقدمه اليها ضباط وجنـــود الفرقة المصرية المســـلحة التى يحاصرها الاسرائيليون فى الفالوجة « نريد ان نســـمع منك فى حفل الليلة المذاع بالراديو اغنية غلبت اصالح فى روحى » ! قطعة غنائيةتحولت الى مهمة وطنية . ليلتها قطعت ام كلثوم وصلتها الاولى لتقدم الاغنية المطلوبة كما لم تغنها من قبل

وفى حرب ١٩٥٦ كانت القنابل تتساقط على محطات ارسال الاذاعة ، والانوار مطفأة داخل استوديوهات الاذاعة نفسها ، ولكن ام كلثوم دخلت الاستوديو لتحفظ اغانيها للمعركة وتسجلها على ضوء الشموع

وبعد نكسة يونيو ١٩٦٧ لم تنتظر أم كلثوم الدعوة من احد لكى تؤدى دورها ــ واجبهـــا ــ كمواطنة ، كفرد عادى لقد بادرت بالدعوة الى اقامة تجمع وطنى للمرأة المصرية .. تجمع يساهم بأى مجهود لترميم ــ ثم تعبئة ــ المشاعر الوطنية للمراة المصرية بعدها قادت الحملة لجمع تبرعات المواطنين ، الذهب ، الاموال الهدايا .. اى مبلغ ، اى هـــدية ، اى رمز .. يكفى للتعبير عن مساهمتك لبلدك .. دور بداته أم كلثوم مبكرا بعد النكســـة . مازال الدور مستمرا

وفى كل الاحيان كان المعنى اكبر من المبالغ المتجمعة ؛ الرمزاكبر من المال . خذ مثلا تلك العروس التى ذهبت لتحضر حفل أمكلثوم بمدينة المنصورة (فبراير ١٩٦٨) حفل اقامته ام كلثوم لصالح تبرعات ازالة آثار العدوان .. ان العروس قدمت دبلة زواجها لكى يجرى عليها مزاد فى الحفل ، وفى لحظات تسابق الجميع على شراء الدبلة دون أن يسترد احدهم الرقم الذى عرضه ونسخه آخر ، ان الدبلة ثمنها جنيه ؛ ولكنها بيعت بألفى جنيه !

وقبل ان تمضى خمس دقائق على هذا الرقم فكرت طفلة صغيرة كانت تحضر نفس الحفل ؛ لقد تقدمت الطفـلة بحفنة من تراب

المنصورة فى كيس صغير من الحرير لكى يجرى عليها المزاد بنفس الطريقة التى جرى بها على دبلة العروس ، فى لحظات بيعت حفنة التراب بثلاثة آلاف جنيه .. هذا ترابنا .. ارضنا .. نفديها بمالنا .. بحياتنا .. هذا هو المعنى الذى استطاع الفنان ـ استطاعت أم كلثوم ـ ان تحوله الى رمز ونموذج ..

و .. ..

هذا هو الجانب الآخر فى شخصية ام كلثوم ، الجانب الذى يجب ان ينتهى اليه كل تقييم لأم كلثوم ، لقد تابعنا ـ طوال صفحات الكتاب ـ شخصية ام كلثوم من زوايا عديدة : ام كلثوم عندما تغنى عندما تختار ما تغنيه ، وعندما تستريح مما تغنيه ، أم كلثوم على المسرح وفى البيت .. مع المستمع .. ومع الشاعر والملحن . ثم ـ الآن ـ ام كلثوم كشخصية وطنية ، كفرد عادى

انها جوانب مختلفة من حياة ام كلثوم وشخصيتها ، ان الصفحات السابقة قامت «بتفكيك» شخصية ام كلثوم وحياتها . والصفحات القادمة ستحاول اعادة ربط شخصية ام كلثوم وحياتها من جديد .

ان ما يهم فى حياة ام كلثوم ليست الطريقة التى نرويها بها ، ولكن الطريقة التى عاشتها بها . ان ما تحتاج امرأة أخرى الى اختراعه جربته هى .. ما تنسجه أخرى من الخيال .. مارسته هى .. ما تحلم بنصفه اى امرأة .. حصلت عليه أم كلثوم كاملا ، انها غنت كما لم يغن احد ، فاستمع اليها الجمهور كما لم يستمع لأحد ، ان بلدها احبها كما لم يحب احدا ، فأحبت هى بلدها كما لم يحبه احد ، انها ـ باختصار ـ غنت واحبت فاستمرت .. فى سنوات لا يستمر فيها أحد ! ..

ان السبب فى هذا كله كان بسيطا بقدر ما كان صعبا انها استطاعت أن تلخص وتركز وتمثل مشاعر جمهور كامل على امتداد جيلين او ثلاثة ، ظاهرة مألوفة فى حياة كل شعب ، ففى أوقات معينة من التاريخ يستطيع شخص واحد ـ فنان واحد ـ أن يكون رمزا لذوق شعبه ومشاعره

هذا ما فعلته ام كلثوم . فعلته فى القاهرة .. وفى الخرطوم ، فعلته فى المغرب ، فى الكويت ، فى تونس ، لبنان ، ليبيا ، فعلته ..

حتى فى هونج كونج ، حتى فى كندا !

ان هونج كونج هى بلد الغرائب . ولكن الغريب بالنسبة لى كان مابلى . سيدة مصرية متزوجة . انها متزوجة من مدير فندق هيلتون بهونج كونج .. انها مقيمة هناك منذ اربع سنوات . شقة انيقة فى الدور الثالث من الفندق .

وقبل ان اغادر هونج كونج سألت السيدة المصرية مجاملا :

ـ الا تريدين اى شىء من مصر ؟

ردت السيدة بلهفة : آه .. ارجوك !

ـ ماذا ؟

ـ اسطوانات . اسطوانات ام كلثوم . ان احدث اسطوانة عندى هى «انت الحب» . اريد اسطوانات كل الاغانى التالية لها. لاتنس .. رجوك لا تنس !

⊙✣⊙

ومن هونج كونج فى الشرق الاقصى ـ الى كنـــدا فى اقصى الغرب ، تكررت لى نفس التجربة !

لقد ذهبت الى كندا مرة فى مهمة صحفية ، ان كندا بلاد بعيدة .. بعيدة .. بلاد تفصلنا عنها صحراء وبحار ومحيطات و ١٧ ساعة بالطائرة ، بلاد نأتمنها على اربعين الف مواطن عربى يعملون هنا .. ويعيشون هناك ..

انني سوف انسي اشياء كثيرة قبل ان انسى لقاءاتنا كل ليلة فى أحد المطاعم المملوكة للعرب بمدينة مونتريال ، مطعم صغير ، ولكنه كان كبيرا جدا بالنسبة لنا ، لان صاحبه يمتلك عدة شرائط سجل عليها أحدث اغانى ام كلثوم ، (احدث هنا تساوى عشر ســنوات مضت !) ـ كنا نلتقى كل ليلة ـ مجموعة من المواطنين العرب .. وانا .. ثم .. نبدا فى سماع اغانى ام كلثوم . شىء واحد اجمعنا عليه لن بلادنا كلها تعيش فى هذا الصوت . نيل مصر،جبال لبنان تلال الاردن ، لهيب الجزائر ، سحر المغرب ، حضارة بغداد ، تاريخ القاهرة ، عمق المحيط ، صفاء السماء ، اتساع الصحراء ..

واحيانا كان هذا كله يختفى عندما يتعطل جهاز التسجيل .. لحظتها يسكت هذا كله . يتحول الى صدى . ذكرى . امل . والى ان ينجح احدنا فى اصلاح الجهاز .. فان كل لحظة تزن فوقنا



ام كلثوم بعد الغناء .. صورة وراء الستار .. صورة لا يراها الجمهور

كجبل . ثم .. يعود الصـــوت . تعود بلادى ، بلاده ، بلادها ، بلادنا ..

كيف حال بلادن ؟ ..

بلادنا تستعد .. شبابنا يحارب .. ارضنا ترويها الدماء ..

واسال ام كلثوم : ماذا تقراين الآن ؟ ..

وهي ترد : قصيدة شعر لنزار قباني . يقول احد ابياتها ..

الى فلسطين طريق واحد يمـــر من فوهة بندقية

هنا تقول ام كلثوم : ان القضية قضية أرض فلســطين لم تكن ارضا خالية من السكان . فلسطين كانت شـعبا يملك الارض . والشعب يجب ان يعود . ليست المسالة احسانا يقدمه العالم الى اللاجئين . ان فدائيينا كسبوا لنا فى سنة مالم تكسبه لنا اصواتنا فى عشرين سنة ..

واسال : ام كلثوم .. ماذا تتصورين اننا نحتاج اليه الآن ؟..

وام كلثوم ترد : رصاص .. وعمل ..

هنا كل شيء ..

هل نحتاج الى شيء آخر ؟! ..



« لا يهمنى من يضع للناس شرائعهم ما دمت انا الذى اضع لهم اغانيهم »

كونفوشيوس

ماذا يبقى من أم كلثوم..

أو محاولة لفهم الشخصية الفنية

.. الا المراة ! ..

عندها يصاب كل كتاب التاريخ المصرى بفقد الذاكرة ! ..

فاى شخص يتعرض لتاريخ المراة فى مصر لن يجد نموذجاواحدا لامراة يحييها المؤرخون ، او حتى يؤرخ لها المؤرخون ! ..

فالمراة عندما ظلت لفترة طويلة صورة ملحقة بأصل اكبر منها واهم : الرجل ..

المراة فى تاريخنا ظل . خيال. صدى ان المؤرخين لايتحدثون عنها الا من خلال رجل .. او عن طريق رجل .. او بوساطةرجل!

و .. هذه اول قاعدة ساهمت ام كلثوم فى كسرها ..

ان ما يبقى ـ و يجب أن يبقى ـ من ام كلثوم هو هـــذا ان المراة تستطيع هى ايضا أن تساهم بشكل رئيسى فى حياتنا العامة وفى قضايانا العامة . ان ام كلثوم ـ كامراة ـ لم تنتظر الدعوة من احد لكى تبدأ نشاطا وطنيا عاما بعدنكسة يونيو ١٩٦٧ ، وقبلها نشاط مستمر النقطة هنا هى أن المراة يمكن ، تستطيع ، بل تقوم فعلا ـ بتحويل السياسة الى عمل بسيط يؤديه كل مواطن المراة هنا تستطيع أن تشارك ، تدعو ، تفكر ، تتقدم ، تبادر ، ثم تعطى المثل . لم تعد المراة هنا تحتاج الى أن تبرر نفسها مرتين : مرة كامراة .. ومرة كمواطنة . لقد سقط الحاجــز الذى كانت المراة تجلس خلفــه .. كامراة .. وبسقوط هذا الحاجز بقيت الصفة الاساسية للمراة : انها مواطنة أولا ثم امراة بعد ذلك .

هذه نقطة

ولكن ام كلثوم فنانة مثلما هى امراة .

هنا ايضا نستطيع ان نكتشف ماذا يبقى لنا منها كفنانة . لقد اثبتت ام كلثوم من قبل ان المراة لا تستطيع ان تكون مواطنا محايدا فى القضايا العامة . انها هى ايضا يجب ان تتصدر الصفوف .

وما يبقى من ام كلثوم كفنانة هو ان الفنان ايضا لا يمكن ان يكون محايدا . الفنان لا بد أن يكون « مع » و « ضد» . الفنان لا يستطيع ان يكون عديم اللون والطعم والرائحة .. لابد للفنان ان يكون له طابع ، لون ، موقف ..

فعندما جاءت ام كلثوم الى القاهرة كانت تستطيع بسهولة ان تكون مجرد مطربة اخرى تردد الاغانى الخليعة السائدة . مجرد مبتدئة تكرر ما نجح فيه غيرها . مجرد صدى . ولكنها اكتشفت انه لابد للفنان ان يختار لابد ـ لان الفن هو اولا اختيار .

وحينما يختار الفنان فانه يفعل ذلك دون ان يلوى ذراع الجمهور لا يستطيع لا يمكن ..

⊙❖⊙

عند هذه النقطة بالضبط سوف نجد انفسنا وجها لوجه امام الدور الحقيقى للفنان ـ لاى فنان ـ دور نسىء فهمه غالبا ، دور يفرض علينا أن نفهم الفنان اولا .. حتى يفهمنا الفنان ! ..

⊙❖⊙

ان الفنان هو اولا متفرج انه متفرج كاى شخص ، ولكنه ليس كأى شخص ! ..

الفنان متفرج من حيث انه يعيش فوق نفس الارض التى نعيش عليها جميعا . يتنفس نفس الهواء . ينفعل بنفس الاحداث .
ولكن الفنان يأخذ تلك اللحظات التى هى بالنسبة لنا مجرد لحظة ، زائد لحظة ، زائد لحظة اخرى .. ثم ينقلها الينا مرة اخرى كسلسلة جديدة مترابطة من الزمن ، لها معنى جديد .. وتفسير جديد ..

ان الشخص العادى يرى صورة الحياة مجزاة منظرا منظرا . يرى الجزء الذى يهمه ، ولكن الفنان يرى ـ أو يحاول أن يرى ـ الصورة كلها . فالشخص العادى يرى الشجرة .. والفنان يرى الغابة ..

من هنا بالضبط يبدا الفنان فى الانفصال عن الشخص العادى .

فالشخص العادى يعيش حياته بالاقدمية . مجرد تسجيل اقدمية زمنية فى الحياة . ولكن الفنان ليس كذلك . انه ليس قطعة اسفنج تمتص الالوان وتعيدها الينا دون تغيير . انه يعيدها الينا الوانا جديدة.. بمعان جديدة .. ومضمون جديد.. فن..

والفنان ـ عندما يكتمل ـ فانه يتعلم أن يفكر ويشعر ويرى بشكل جديد ، طريقة خاصة . اسلوب مختلف . وهذا هو الامر الصعب دائما فى أى شىء ..

ان الروائى الفرنسى الشهير فلوبير كان يقول لكل واحد من تلاميذه اذهب وسر خطوتين ثم اكتب لى مارايته فى مائة سطر ! . هذا حقيقى

فالفنان لا بد أن يرى مالا يراه غيره ، يلاحظ مالا يلاحظه غيره . يتفرج كما لا يتفرج غيره

⊙❖⊙

وكل منا هو فى الواقع فنان بدرجة أو بأخرى ؛ ان الغريزة التى تدفعنا الى ان نطابق بين ألوان جواربنا وأربطة عنقنا ، وتدفعنا الى ان نضع ازرارا على ملابسنا هى نفسها الغريزة البدائية التى تدفع الفنان فيما بعد الى البحث عن الجمال فى كل شىء قبيح كلنا اذن فنانون بشكل ما . بالرغم من أننا لا نعرف ذلك غالبا . اكتشاف تماما كالبطل فى احدى مسرحيات موليير .. عندما يشعر بسعادة بالغة لانه اكتشف ـ فجأة ـ انه كان طوال حياته يتكلم : النثر !!

نحن اذن نحتاج الى النظرة الفنية فى حياتنا ؛ نحتاج الى وجود الفنان . واذا لم نجده اخترعناه . فكل جيل يتولى اختراع الفنانين العظماء الذى يقدم لهم تقديره واعجابه

⊙❖⊙

ومن الاقوال المأثورة أن كل شعب يحصل على الحكومة التى يستحقها

ولكن الاقرب الى الحقيقة أن كل جمهور يحصل على الفنانين الذين يستحقهم ؛ لان كل جمهور يسعى دائما الى أن يتعرف على حقيقته . والفن يقوم ـ فى جزء منه ـ بهذه المهمة . الفن ـ كما قال الروائى الانجليزى د. هـ. لورنس : يخبرك بالحقيقة عن عصره او ـ كما قال كارل ماركس ـ الفن هو دائما الحركة الخالدة لعصره



قبله .. على احسن كتاب : القرآن الكريم

او ـ يقول الفنان الشهير بيكاسو ـ اننا جميعا نعرف ان الفن ليس هو الحقيقة . ان الفن هو الاكذوبة التى تجعلنا ندرك الحقيقة .

ان الصفة الاساسية للفن اذن هى انه يكتشف ويدرك لحسابنا انه يعطينا الوجه الآخر ـ الوجه الخفى ـ لحياتنا .

⊙✥⊙

والفنان حينما يقوم بهذه المهمة فانه يقوم بها لحسابنا جميعا . لحساب جمهوره . فلا تصدق انه يوجد فنان لا يهتم بالجمهور . كذب . الفنان لا يمكن ان يستغنى لحظة عن الناس وعن الجمهور .. الآن ، او بعد مائة سنة . بل ان الفنان الروائى تولستوى ـ فى تعريفه للفن ـ يقول انه « .. نشاط انسانى يحاول فيه واحد من الناس ان ينقل احساسات معينة عاشها هو .. لكى يتأثر بها الآخرون ويعيشون هم ايضا » ..

ان جوهر هذا الراى لتولستوى يتشابه مع نظرية اخرى فى الشعر وثالثة فى القصة ، ورابعة فى الغناء . نظرية تصر على أن الفنان هو « .. انسان يتحدث الى الناس » ..

لهذا السبب فان الفنان يجد نفسه دائما فى وضع واحد مع السياسى والقديس . ان الثلاثة هم الذين يحكمون العالم ـ الآن وفى اى وقت . الثلاثة عبيد لـ وسادة على ـ المجتمع الذى يعيشون فيه . الثلاثة يحتاجون دائما الى جمهور ، ولهم دائما جمهور . ولكن من الصعب أن نقول ايهم يملك السلطة الاكبر بالنسبة لجمهوره .

ان السياسى يملك السلطة ، والقديس يهدد بالجحيم ، والفنان يغرى بالجمال ..

وبالنسبة للسياسى فان العالم ينقسم الى قسمين اصدقاء .. واعداء . الذين معه .. والذين ضده .

وبالنسبة لرجل الدين ينقسم العالم الى قسمين آخرين : مؤمنين .. وكفار . الذين يؤمنون .. والذين يكفرون .

اما الفنان ـ فما زال العالم ينقسم عنده ايضا الى قسمين : الذين يحبون .. والذين لا يحبون . الذين يتذوقون الجمال .. والذين لا يتذوقونه ..

انه اذن تقسيم مختلف . اهتمامات مختلفة . جمهور مختلف .

واحيانا يكون الجمهور واحدا بالنسبة للثلاثة ، ولكن معنى هذا الجمهور يختلف .

أحيانا تكون الايدى التى تصفق للجميع هى نفسها .

ولكنها عندما تصفق للسياسى فهى تقول : موافقون .

وعندما تصفق للقديس فهى تقول : مؤمنون .

وعندما تصفق للفنان فهى تصيح : اعطنا المزيد .. أعد ..

ان الجمهور يقول ذلك للفنان بغير سلطة يخشاها أو جنة تغريه .. اختيار .. لان الفنان هو الوحيد الذى يعيش بعقله . يعيش على ذكائه ، وذكائه فقط . انه يلعب على المكشوف . ان أوراقه كلها يراها الجمهور ..

⊙❖⊙

لهذا السبب نفسه فان الفنـان يحتفظ بأذنه دائما قريبة من ايدى الجمهور . وكلما صفق له الجمهور أكثر .. احتاج هـذا لتصفيق اكثر . المسالة كمياه المحيط . كلما شربت منها اكثر .. عطشت اكثر . ان الفنان هنـا كالبطل فى احدى روايات بلزاك ، حينما يطل على باريس ويصيح : لم يزل امامى ان امتلك هذه ! .

⊙❖⊙

ولكن الفنان لا يحصل على اعجاب الجمهور بسـهولة . واذا حصل عليه أصبح صعبا ان يحافظ عليه .

المسألة هنا كطرفى مقص كلما حصل الفنـان على اعجـاب من الجمهور .. شعر بخوف أكبر من فقدان هذا الجمهور . خوف من الا يتلقى هذا الاعجاب مرة أخرى

ان الذين يعرفون ام كلثوم عن قرب ، يعلمون انها تعتبر ان كل اغنية جديدة تقدمها للجمهور هى اغنيتها الاولى. هى لقاؤها الاول مع الجمهور . انها تحس بخوف ، باضطراب ، بقلق ، بمسئولية ، انها تحس ان كل عمل جديد تقدمه هو استفتاء جديد لشعبيتها ، هذه المسئولية نحو الجمهور ، هذا القلق ، يشغل كل فنان أصيل بأكثر مما نتصور ، وكلما كبر الفنان زاد قلقه.. زادت مسئوليته.. ان اى شخص .. كلما ارتفع فوق السلم .. ازدادت خشيته من السقوط . لانه كلما كان مرتفعا .. كان السقوط مدويا ..

وسقوط الفنان يمكن ان يتم فى اى لحظة . لايكفى ان تكون فنانا امس ، ولا منـــذ خمس دقائق . يجب ان تكون فنانا الآن ، وفى كل لحظة . ان بيرجنت بطل مسرحيـــة هنريك ابسن يصيح قائلا : اين ثلوج شتاء مضى ؟ !

والجمهور يفعل نفس الشيء : لقد ذابت بالنسبة له ثلوج شتاء مضى . ذابت أمجاد يوم مضى . ماذا من جديد .. هذا مايهم الآن

ان هذا الخوف من ـ والحاجة الى ـ الجمهور ـ هو ابرز مايميز الفنان عن غيره فى هذا العالم . انالجمهور بالنسبة للفنان هو المكافأة .. وهو العقاب . هو البداية .. والنهاية . السعادة .. والالم . القمة . . والقاع .

هـــذا معناه أن الجمهـــور يملك دائما حق الفيتو بالنسبة لاعمال الفنان . حقا يحمى أهل الفن دائما من اهل الهوى .ويميزهم عن اهل الهوى .

فالفن يرفض التكرار .. حتى ولو طلبه اهل الهوى .

والفن لايقبل الوساطة .. حتى ولو حاولها اهل النفوذ ..

والفن لا ياخذ رشوة .. حتى ولو دفعها اهل الغنى .

كل الفنون هكذا : ادب .. موسيقى .. رسم .. شعر .. صحافة .. وغناء

انها علاقة مباشرة تجعل الفنـــان دائما اصدق ممثل للجمهور . فالفنان الصـــادق دائما هو الذى يتقمص الصفات البارزة لشعبه . من الذى يفوق فى امريكيته مثلا سبنسر تراسى او هنرى فوندا او هنرىميللر . منالذى يفوق فى ايطاليته البرتومورافيا او انا مانيانى ؟ منالذى يفوق فىفرنسيته جان بول سارتر أو بريجيت باردو ؟ من الذى يفوق فى مصريته طه حسين او العقاد او ام كلثوم ؟

كلهم يحملون فىاعمالهم بصماتشعوبهم واضحة . صفاتمجتمعهم كاملة . اتفق أو اختلف مع هـــذه الصفات كما تشاء .. ولكنهم فى النهاية رمز وتلخيص لها .

⊙❖⊙

والفنـــان ـ بجانبمهمته كمتفرج على الحياة ـ هو أيضا مفسر لهذه الحياة . انه مؤرخ للماضى .. ومكتشـف للمستقبل فى وقت واحد .



ان وجه ام كلثوم خال من الزوايا الحادة القاطعة . وجه يفضل ان يستمع اولا في كل مناقشة قبل ان يبدا الحديث

صعوبة جديدة تضاف الى الصعوبات السابقة فى عمل الفنان .

فالفنان عندما يكون كاتبا .. فانه يصبح كالطبيب : لاتهمه حالات اكتمال الصحة ، ولكن تثيره حالات تفشى المرض .

وعنـــدما يكون اديبا .. يصبح كالفلكى : يبدأ بما يراه الجميع .. لكى يصل الى مالا يراه الجميع .

وعندما يكون موسيقيا او ممثلا او مغنيا .. يصبح كالشمعة : لابد أن تحترق لكى تنير للآخرين لابد ان يتألم الفنان .. لكى يسعد الآخرين .

فالشمعة فى يد الفنان تحترق من طرفيها ، لابد للفنان ان يتعذب ، يقاسى ، يتألم ، أحيانا يستشهد ، لكى يقدم للآخرين شعاعا من النور يهديهم الى الطريق .

وكثيرا مالا يرى الناس اثرا لهذا العذاب فى عمل الفنان . تماما مثلما نلاحظ فى حيـاتنا العــادية ان كثيرا من الاشـياء التى نأكلها قد طبخت على موقد بوتاجاز .. ولكننـــا لانعثر فى الطعام على مذاق البوتاجاز .

لهذا السبب كان الموسيقار الالمانى الشهير بيتهوفن يقول دائما : انى أصبر وافكر واتألم فكل الم يجلب معه بعض الخير !

ان هذا الامل ـ الامل فى بعض الخير بعد كل العذاب ـ هو العزاء الاخير لاى فنان عن المه ، مثلما نجد ان نجاح انطلاق الصاروخ فى دقيقة هو العزاء الاخير لسنوات من الجهد الذى بذله المهندسون والعلماء فى تركيب هذا الصاروخ .

ان الخوف من الجمهور يسبب اقصى الالم ، ولكن مكافأة الجمهور تسبب اقصى سعادة . شـــعور عبر عنه حكيم الصـــين القديمة كونفوشيوس بقوله : « لا يهمنى من يضع للناس شرائعهم ما دمت أنا الذى اصنع لهم اغانيهم » .

لان الفن هو فى النهاية تعبير الانسان عن سعادته .

⊙✤⊙

و .. ام كلثـــوم هى أولا امرأة ، وثانيا فنانة ، وثالثـا فنـانة تسعد الناس .

وبالمنطق ...



ام كلثوم تقرا .. انها تقرا ايات من القرآن الكريم ..

الصور الحديثة لام كلثوم بعدسة فاروق ابراهيم

ليس من حقنا ان نستهلك السعادة دون ان ننتجها . كلمات نظرية . لاننا نرى غير ذلك فى حياتنا . نستهلك الثروة دون أن ننتجها . نستهلك الجمال دون ان نخلقه . و. نستمع الى ام كلثوم ، دون ان ننتج أم كلثوم أخرى . ولسوف يظل الامر هكذا الى ان نفهم اولا طبيعة الفنان كشخص متميز . نفهم ثانيا ماذا يتبقى لنا من الفنان من ام كلثوم فى حالتنا هذه .

ان ام كلثوم فنانة تغنى . قمة فى فنها . مستمرة فى قمتها . ان استمرارها هذا نجاح فى حد ذاته . فمع صدام الاجيال المستمر الذى تشهده الانسانية .. لايوجد جيل يتقبل احكام واذواق الجيل السابق عليه بغير مراجعة احيانا وبالرفض غالبا . ان هذا لم يحدث مع ام كلثوم . استثناء خاص .

ان هذا الاستثناء لم يكن مجاملة شخصية لام كلثوم . فالفن لايقبل المجاملات . وانما هو نتيجة لصفات استثنائية تميزت بها ام كلثوم . صفات حاول هذا الكتاب تسجيل عناوينها الا صفة أخيرة .. هى حياة ام كلثوم نفسها .

فنحن — فى الادب مثلا — نرى ان هناك نوعين من الفنانين . نحن نرى فنانين تطغى اعمالهم الفنية على حياتهم . شيكسبير مثلا . نحن لانعرف من هو شيكسبير . أو من كان هومر . لقد اختفى الفنان هنا داخل عمله ، وتراجعت حياته وشخصيته الى الخلف تماما ..

وفى مقابل ذلك نجد فنانين طغت حياتهم على اعمالهم الفنية . جان جاك روسو مثلا . ان اعترافاته التى سجل فيها حياته أصبحت اهم عمل فنى له . لقد أصبحت حياته نفسها عملا فنيا تراجعت الى جانبه كل الاعمال الاخرى .

⊙❖⊙

وبالنسبة لام كلثوم فاننى ارى انها تنتمى الى النوع الاول فى المدى القصير ، وتنتمى الى النوع الثانى فى المدى الطويل . ان السنوات القادمة سوف تؤكد ذلك .

تؤكد ان حياة ام كلثوم هى نفسها العمل الفنى الاكبر الذى تركته لنا ..

و . . .

كم الساعة الآن — لو سمحت ؟ !

محمود عوض

من الحديد
إلى الذهب
للصانع .. للتاجر
.. للمستهلك ..

سيجال
S.I.G.A.L

الشركة المصرية لتجارة المعادن

احدى شركات المؤسسة المصرية العامة للسلع الهندسية والمعادن والكيماويات

أرقى الأذواق
وأروع تصميمات

المجوهرات

إنتاج مصانع الشركة

ذهب عيار ٢١ و ١٨ أو مرصع بالماس أو الياقوت



المركز الرئيسي : ٤٣٢ شارع بور سعيد
تليفون : ٩٠١٦٨٧ / ٩٠٩٤٩٩ / ٩٠٩٦٨٣


ڤاليانت جديد
بجودة صناعة الدواء
معجون الأسنان
Valiant
Shaving Cream
نصف الكمية
تعطيك
ضعف الرغوة
كريم الحلاقة
القاهرة للأدوية


بنك القاهرة
الحائز على كأس الانتاج لعام ١٩٦٩
صندوق التوفير
فائدة ٣½٪ سنوياً
الحساب الشخصي
يخدمك أينما كنت بدون
عمولة أو مصاريف
فائدة ٣½ سنوياً
الخدمة المسائية
بفروع : طلعت حرب - رمسيس
العباسية
من ٦½ إلى ٨½ مساءً
الإدارة العامة ٢٢ شارع عدلى القاهرة


شركة
عادل
للملابس والمنسوجات
٥ شارع صبري أبو علم
القاهرة ت ٤١٥٨٢
أرقى بيوت الأزياء للرجال
* أقمشة
* ملابس جاهزة
* قمصان
* كرافتات
* بيجامات
* ملابس داخلية
قسم خاص للتفصيل
أسعارنا أقل من التكلفة


شركة اسطوانات صوت القاهرة
تقدم من
روائع سفيرة
الفن العربي
أم كلثوم
ألف ليلة وليلة
هذه ليلتي
فات الميعاد
حديث الروح
هجرتك
حب إيه
مش ممكن أبدا
حيرت قلبي
لا يا حبيبي
حسيبك للزمن
ظلمنا الحب
سيرة الحب
أنت عمري
بتفكر في مين
للصبر حدود
أقول لك إيه
أغداً ألقاك
أمل حياتي
بعيد عنك
أروح لمين
عودت عيني
يا ظالمني
ذكريات
الأطلال
فكروني
إنت الحب
رباعيات الخيام
أراك عصي الدمع
تباع بفرع الشركة ٣ شارع البورصة الجديدة بالقاهرة ومعارض شاهر سنتريك وجميع محلات بيع الاسطوانات بمصر والخارج وبمعارض :
الكويت : سعد وخالد نصار الشريعان ص.ب ١٥٦ الكويت
لبنان : قطان إخوان شارع بشارة الخوري بناية طرازي ص.ب ٢٥٩٤ بيروت
العراق : محمد عارف حقاقجي شارع الرشيد ص.ب ١١٠١٦ بغداد